

5 me Année; No. 208

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 28 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٢٤٥٥

العــــدد ٢٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢٨ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

٨٠٦٦

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ أحمد أمين

رددت الجرائد والمجلات فى هذه الأيام الشكوى من ضعف الطلبة وخريجى الجامعة فى اللغة العربية ـ ولا شك أنها مسألة لا يصح أن تمر من غير أن يتداولها الكتاب بالشرح والتعليل ، ويقلبوها على وجوهها المختلفة ، حتى يصلوا إلى علاج حاسم .

أما إن الطلبة ضعاف جداً فى اللغة العربية فأمر لا يحتاج إلى برهان . فأكثرهم لا يحسن أن يكتب أسطراً ولا أن يقرأ أسطراً من غير لحن فظيع يكاد يكون بعدد الكلمات التى يكتبها أو يقرؤها ؛ وهم إذا خطبوا أو قرءوا أو كتبوا أو أدوا امتحانا رأيت وسمعت ما يثير العجب ويبعث الأسف . وأما أن الضعف فى اللغة العربية نكبة على البلاد فذلك أيضاً أمر فى منتهى الوضوح ، لا لأن اللغة العربية لغة البلاد والضعف فيها ضعف فى القومية فقط ، بل لأنها اللغة التى يعتمد عليها جمهور الأمة فى ثقافتهم وتكوين عقليتهم ؛ فاللغة الأجنبية التى يتعلمها طلاب المدارس الثانوية والعالية ليست هى عماد الثقافة ، وليست هى التى تكون أكثر جزء فى عقليتنا ، إنما الذى يقوم بهذا كله هو اللغة العربية التى نتعلمها فى الكتاتيب ورياض الأطفال ، وندرس بها العلوم المختلفة

فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . فالضعف فى اللغة العربية ضعف فى الوسيلة والنتيجة معاً ، على حين أن الضعف فى اللغة الأجنبية فى كثير من الأحيان ضعف فى الوسيلة فقط ، ولهذا أعتقد أن معلم اللغة العربية فى المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته وضعفه تتكون - إلى حد كبير - عقلية الأمة .

وبعد ، فما هى الأسباب التى نشأ عنها هذا الضعف ؟ أظن أنه يكفينا فى هذا المقال الاجابة عن هذا السؤال وإرجاء الكلام فى العلاج إلى مقال أو مقالات أخر .

فعندى أن الأسباب ترجع إلى أمور ثلاثة : طبيعة اللغة العربية نفسها ، والمعلم الذى يعلمها ، والمكتبة العربية .

فأما طبيعة اللغة العربية فهى صعبة عسره إذا قيست - مثلا - باللغة الانجليزية أو الفرنسية . ويكفى للتدليل على صعوبتها ذكر بعض عوارضها : فهى - مثلا - لغة معربة ، تتعاور أواخرها الحركات من رفع ونصب وجر وجزم حسب العوامل المختلفة ؛ ولا شك أن اللغة المعربة أصعب من اللغة الموقوفة ، أعنى التى يلتزم آخرها شكلا واحداً فى جميع المواضع ومع جميع العوامل كاللغة الانجليزية والفرنسية .

وهى صعبة كذلك من ناحية أن حروفها وحدها لا تدل على كيفية النطق بها ، بل لا بد لصحة النطق من الضبط بالحركات أو المران الطويل ، على عكس اللغات الاوربية التى تدل كتابتها على كيفية النطق بها فى أكثر مواضعها . والضبط بالشكل عسير فلا نستعمله فى الجرائد والمجلات ولا فى أكثر الكتب الأدبية قديمها وحديثها .

وهى صعبة - أيضاً - من ناحية الاختلاف الكثير فى الفعل الثلاثى ، فله أشكال كثيرة لا يمكن إخضاعها لضوابط حاسمة ، وكصيغ جموع التكسير فهى كثيرة وضوابطها قلما تطرد ، وكنظام العدد والمعدود فانه معقد تعقيداً شديداً حتى لا يجيده إلا الخاصة وأشباههم .

كل هذا ونحوه يجعل اللغة العربية صعبة المنال ، وإتقانها يحتاج إلى مران كثير ومجهود كبير من المتعلم والمعلم .

ولست أعرض هذا لبيان ما إذا كانت هذه الأعراض مظهراً من مظاهر رقى اللغة أو ضعفها فان هذا لا يعنينى الآن ، وأما الذى يعنينى فهو تقرير صعوبة اللغة العربية وحاجتها الشديدة إلى عناية كبرى لتذليل صعوباتها ورسم أقرب خطة للتغلب عليها حتى يحذقها المتعلم من أقرب سبيل .

***

فاذا نحن وصلنا إلى المعلم فقد وصلنا إلى نقطة شائكة ، ذلك لأننا اعتدنا دائماً أن ننقل النقد فى الأمور العامة إلى مسائل شخصية ، ونحول الكلام فى المبادىء العامة إلى فئات وأحزاب ، ونسيء الظن بالناقد ، فان كان من فئة خاصة ظنوا أنه يدافع عن فئته وأنه يريد تنقص غيره . فهل يسمح لى المعلمون بأن أصارحهم القول مؤكداً أن لا غرض لى إلا الاخلاص للحق؟

إن كان كذلك فانى أصدقهم القول بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة العربيه يرجع اليهم . ولست أنكر أن منهم أفذاذا نابغين يصح أن يكونوا المثل الذى ننشده ، ولكن المنطق عودنا أن يكون حكمنا على الكثير الشائع لا على القليل النادر

فالحق أن دار العلوم والأزهر وكلية الآداب لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين تتطلبهم والذين تتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الفاشى فيها .

فأما دار العلوم فقد تأسست . والذى دعا وزارة المعارف إلى إنشائها أنها أحست بعجز الأزهر عن أن يمدها بالمعلمين الصالحين لها ، إذ رأت الأزهر تنقصه - إذ ذاك - الثقافة الحديثة والعلم بمناهج التربية والتعليم ، وقد نجحت الوزارة فى تحقيق هذا الغرض الى حد كبير ، وأخرجت رجالا نهضوا باللغة العربية إلى حد ما ، وأحسنوا التدريس على خير مما كان يدرسه الازهريون ، ولكن دار العلوم كانت سادّة لحاجة الأمة فى السنين الأولى من إنشائها ، ثم تقدمت الأمة فى ثقافتها ووقفت دار العلوم حيث كانت ، فأصبحت لا تؤدى رسالتها كاملة ، وأصبح خريج دار العلوم لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذى هو فى حاجة اليه ، ولا له من المهارة فى الوسائل ما يستطيع بها أن ينهض بالطلبة النهوض اللائق ، ولا هو يساير الزمن فى ثقافته حتى يخضع الطلبة لشخصيته القوية ؛ ودليل ذلك أمور كثيرة : منها ضعف المكتبة العربية وهو ما سأبينه بعد ؛ ومنها عجز معلمى اللغة العربية عن تشويق الجمهور والطلبة إلى القراءة العربية ، حتى انا نرى الناشىء لا يكاد يستطيع القراءة فى الكتب الأجنبية حتى يهيم بها ويفضلها ألف مرة على المطالعة العربية ؛

ومنها نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وان وضعت فى المناهج فى أوائلها ؛ ومنها أن الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك ضعيفة إلى حد بعيد ، والمسئول عنها - كما أسلفنا - هم معلمو اللغة العربية لأنها لغة البلاد وعليها يعتمد فى تكوين العقلية ، إلى كثير من مثل هذه الأسباب .

وأما الازهر من ناحية اللغة العربية فهو الآن وليد دار العلوم ، والمشرف على تعليم اللغة العربية فيه هم خريجوها ؛ فقصاراه أن يبلغ من الرقى ما بلغته مدرسة دار العلوم فى تعليمها ونظمها ومناهجها حتى يحل محلها ؛ ويكفى هذا برهانا على أنه لا يحقق الغرض الذى نرمى اليه .

وأما قسم اللغة العربية فى كلية الآداب فكذلك ناقص ضعيف ، فهو يعلم طرق البحث الجامعى ، وهذا يضطره إلى أن يتوسع فى مسألة وأن يهمل مسائل ، فلا يخرج الطالب دارساً لكل ما ينبغى أن يدرس . أضف إلى ذلك أنه يعتمد فى طلبته على طائفة تخرج أكثرها من المدارس الأميرية وحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، وهؤلاء لا يصلحون صلاحية تامة لدراسة اللغة العربية إلا بعد عهد طويل لا تكفى له سنو الدراسة الجامعية ؛ ذلك أن اللغة العربية متصلة اتصالا وثيقاً بالدين ، ولا يمكن أن يحذقها ويستطيع أن يفهم كتبها القديمة إلا من بلغ درجة عالية فى فهم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والتاريخ الاسلامى ، والطلبة الذين تأخذهم الجامعة لهذا القسم لم يثقفوا هذه الثقافة ، ولا تستطيع الجامعة أن تكمل هذا النقص مهما بذل المدرسون من الجهد . ومن أجل هذا ترى أن طلبته بينما يجيدون نهج البحث فى المسائل إذ يقصرون تقصيرا معيباً فى مسائل تعد فى نظر الازهر ودار العلوم مسائل أولية وهى فى الواقع كذلك .

* * *

إذن من الحق أن نقول إن المعاهد التى تدرس اللغة العربية فى مصر تعجز عن إخراج المعلم الكفء ، ومن العجيب أن توجد هيئات ثلاث لتحضير معلمى اللغة العربية والبلد لا يحتاج إلا إلى هيئة واحدة ؛ ثم كل هذه الهيئات معيب لتوزع قواها ، ولو وجدت القوى فى هيئة واحدة - ولا أتعرض الآن لبيان ما هى - لاستطاعت أن تخرج خير نموذج للمعلم ، ولكن يعصف بهذه الفكرة الصالحة تعصب كل فئة لنفسها ، فضاعت بذلك المصلحة العامة

* * *

ويتصل بأمر المعلمين مسائل كانت هى الأخرى سبباً فى الضعف وهي مناهج الدراسة والامتحانات والتفتيش

فمناهج تدريس اللغة العربية متحجرة برغم ما يبدو من مدنيتها وأناقتها . خذ - مثلا - منهج قواعد اللغة العربية والبلاغة تجد أنهما إلى الآن لا يزالان هما بعينيهما منهجى سيبويه والسكاكى على الرغم من زخرفتهما ، فالتقسيم الذى قسمه سيبويه فى النحو والتعاريف التى وضعها والمصطلحات التى ذكرها هى هى فى كتب المدارس اليوم . وكل ما حدث حتى فى الكتب التى ألفت منذ سنوات قليلة - هو ذكر الأمثلة الرشيقة وتبسيط الشرح ، ولكن لم يبذل أى مجهود فى معالجة النحو على أساس جديد كضم مسائل متعددة إلى أصل واحد حتى يسهل على الطلبة فهمها وتحصيلها وكوضع مصطلحات جديدة أقرب إلى الفهم ونحو ذلك . وحسبنا دليلا على ذلك ما نراه فى أجروميات اللغات الحية الأخرى ؛ فأجرومية اللغة الفرنسية أو الانجليزية اليوم تخالف - فى الجوهر - ما كانت عليه منذ عشرين سنة فضلا عن قرن وقرنين

ومصيبتنا فى البلاغة أعظم ، فبرامجنا لا توحى بلاغة ، ولا تربى ذوقاً ؛ وإلا فقل لى بربك ماذا تفيد دراسة « الفصل والوصل » على هذا المنهج إلا تكرير مصطلحات فارغة ككمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع وشبه كمال الاتصال ؟ وأخبرنى أى أديب يراعى ذلك عند كتابته ، ومتى كانت هذه المصطلحات الفارغة وسيلة لرقى الذوق الأدبي ؟

وليست برامجنا فى الأدب بأقل سوءاً من هذين ، فإنا نضع فى البرنامج أول الأمر مسائل فلسفية وقواعد فى النقد وتاريخ الأدب فى العصور المختلفة قبل أن يلم الطالب بجمهرة كبيرة من الأدب يقرؤها ويحفظها ويتذوقها ،وبذلك تقدم له نتائج من غير مقدمات ، وتصعده على السطح من غير سلم

والذين يضعون البرامج يكلفون وضعها فى أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين . وماذا على وزارة المعارف لو كلفت من يضع لها البرامج المستقبلة فى سنتين أو أكثر على ألا توضع إلا بعد دراسة عميقة ، ثم تنشر فى الجرائد والمجلات

وتتقبل الاعتراضات عليها ويعمل بالصالح منها ، ثم تثبت الوزارة العمل بها عهدا طويلا حتى تتم تجربتها ؟

ثم الامتحانات أمرها غريب ! فمع هذا الضعف الذى نسمعه فى كل مكان ، تظهر نتيجة الامتحانات فى اللغة العربية باهرة ، والسقوط فيها نادر ! فشيء من شيئين : إما أن تكون الشكوى فى غير محلها ، وهذا مالا يسلم به عاقل ، أو تكون الامتحانات على غير وجهها ، وهذا مايقوله كل عاقل . وسبب هذا السوء فى الامتحان كثير ، فنظريات النحو واسعة تحتمل أن يكون لكل خطأ تأويل من الصواب ، ومنها عدم تقدير ورقة الامتحانات فى جملتها حتى يصح أن يسقط الطالب إن أتى بخطأ شنيع فى موضع ولو أصاب فى مواضع أخرى ، ومنها الرحمة والشفقة فى التصحيح ، وأؤكد أن لو زالت هذه الرحمة سنة من السنوات وأدرك الطالب ما تعامل به ورقته من الحزم فى الامتحان لخدم هذا الموقف اللغة العربية فى المدارس جملة سنين

ثم التفتيش ؛ والمفتش معذور ، فهو كالقاضى يطبق مواد القانون ولا يشرعها ، فعليه أن ينظر كم موضوعا إنشائياً كتبه الطلبة ، وهل هذا يتناسب مع العدد المقرر فى السنة ، وهل ترك المدرس كلمة خطأ فى كراسة الطالب من غير أن يصححها ، وهل أساء المدرس إساءة كبرى فاستعمل كلمة « التليفون » و « الراديو » أو على العموم استعمل كلمة ليست فى « القاموس المحيط » أو « لسان العرب » ، فأما هل نجح المدرس فى تعليمه اللغة العربية لطلبته ، وما الوسائل التى استعملها ، وهل تقدم الطلبة فى القراءة والكتابة فأمر فى المنزلة الثانية ؛ وأما ما ينبغى أن يدرس هنا أو لا يدرس ، وما العوامل فى الرقى باللغة العربية – على العموم – فأمر يرجع فى الأغلب إلى المشرع لا إلى المفتش

نعود – بعد – إلى المسألة الأخيرة من أسباب ضعف اللغة العربية . وهى مسألة « المكتبة العربية » ، فالحق أنها مكتبة ضعيفة فاترة ، هى مائدة ليست دسمة ولا شهية ولا متنوعة الألوان . والحق أيضاً أن القائمين باحضارها لم يجيدوا طهيها ؛ فدار العلوم وقد أتى على إنشائها أكثر من خمسين عاماً وقد خرجت الألوف من أبنائها ، هل أجادت فى إخراج الكتب النافعة المختلفة الألوان والموضوع ؟ أو هى قصرت كل التقصير فاخرجت من الكتب مالا يتفق وعدد خريجيها ومنزلتهم فى الحياة الاجتماعية والأدبية ؟

والأزهر وهو أقدم عهداً وأعرق أصلا لم يشترك فى التأليف الحديث اشتراكا جدياً ، ولم يساهم بالقدر الذى كان يجب عليه ، ولم يعرف عقلية الناس فى العصر الحديث حتى يخرج لهم ما هم فى أشد الحاجة إليه

وكلية الآداب – وإن قصر عهدها – لم تؤد رسالتها فى هذا الموضوع كاملة ، واتجهت أكثر ما اتجهت إلى الثقافة الخاصة لا العامة

فمكتبتنا فى كل نواحيها ناقصة من ناحية الأطفال ، ومن ناحية الجمهور ، ومن ناحية المتعلمين . وحسبك أن تقوم بسياحة فى مكتبة أفرنجية وأخرى فى مكتبة عربية لترى الفرق الذى يحزنك ويبعث فى نفسك الخجل والشعور بالتقصير

ماذا يقرأ الطفل فى بيته وفى عطلته ؟ وماذا تقرأ الفتاة فى بيتها ؟ وأين الروايات الراقية التى يصح أن نضعها فى يد أبنائنا وبناتنا ؟ وأين الكتب فى الثقافة العامة التى تزيد بها معلومات الجمهور ؟ وأين الأدب القديم المبسط ؟ وأين الأدب الحديث المنشأ ؟ الاجابة عن هذه الأسئلة يعرفها كل قارىء لمقالتى . وواضح أن اللغة لا ترقى بكتبها فى قواعد النحو والصرف والبلاغة بمقدار ما ترقى بالكتب الأدبية ذوات الموضوع

سيقول المعلمون : وماذا نصنع وليس العيب عيبنا ، فوزارة المعارف ترهقنا بالدروس وترهقنا بنظام الكراسات وتصحيحها ، وبنحو ذلك حتى لا نجد وقتاً لترقية نفوسنا والازدياد فى معلوماتنا فضلا عن المساهمة فى تضخيم « المكتبة العربية » ، والمشاركة فى إصلاح جوانب النقص منها

ذلك حق ، ولكنه ليس ردا على ما أقول ، فانى فى هذا المقال أكتفى باستعراض الأدواء استعراضاً خاطفاً سريعاً ثم أعود بعد ، إن شاء الله إلى ذكر ما يعن لى من طرق العلاج

وأياً ما كان فالموضوع جد خطير ، وهو – كما قلت – جدير بأن يتناوله الكتاب بالبحث والتفكير والكتابة ومناقشة الآراء ؛ وكل ما أرجو هو ما أشرت اليه ألا تتحول المسألة إلى نزاع شخصى أو طائفى ، فالأمر أهم من ذلك كله . وإلى الجحيم كل مسألة شخصية أو طائفية تقف فى سبيل الخير العام

احمد أمين

فى الحب أيضا

وجواب بعض المســائل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

يظهر أنى لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذى تكون فيه النفس احسن تهيؤاً له، فقد تلقيت رسائل من هنا وههنا، ومن مصر وغيرها من أقطار العرب، جملة مااستخلصته منها أنى حمار طويل الأذنين، وأن لى نهيقاً عالياً ولكنه نهيق لا أكثر، وقد أكون كذلك فما أدرى، ولو أنى عرفت نفسى على حقيقتها لكان هذا حسبى. وعزائى، إذا كنت هذا، قول رصيفى الفاضل ابن الرومى:

«فىّ طبعٌ ملائكىٌّ لديه عازف صادف عن الإطراب
أو حمارية فمقدار حظى شبعةٌ عنده بلا إتعاب

فبين الملائكية والحمارية هذه الجامعة - إن الملائكية تغرى بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً، أو لا أدرى لماذا، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة، وإن الحمارية تؤدى أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الادراك وعدم الشعور بالحاجة. ولا تعنينى الاسباب، وإنما تعنينى النتيجة وهى كما ترى واحدة والحمد لله، ولقد أطلت النظر إلى وجهى فى المرآة لما وردتنى هذه الرسائل ورفعت يدى إلى أذنىّ أتحسسهما ثم قلت لنفسى إن الحمارية طبيعية لا صورة، وارتددت عن المرآة ورأسى مثنىٌّ على صدرى وأذناى مسترخيتان - مجازاً.

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلى، إني لو قضيت يوماً على شاطىء البحر فى الاسكندرية لأدركت أن الحب يجىء فى وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت، واعترف لى غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لى أحدهم أنه كان يلقى صاحبته كل صباح فأحبها، وقال ثان انه سمع صوتاً فى الصباح فخيل اليه أنه يعرفه، فلما رآها عرف أنذا كرته لم تخنه، وكان أن أحب ذات الصوت الذى أيقظه من النوم، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها. وذكر ثالث أن المرأة تتزين فى كل وقت - فى البيت وخارج البيت الخ الخ فما بى إلى الإطالة حاجة

لهذا قلت إنى لم أحسن البيان، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب فى الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل، وإنما أردت أن أبين أن الحب - ككل مرض - تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلا وان كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن اليه. وهذا التعب الخفيف لا وقت له، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتى: «يا امرأة، هل رأيت أحداً قبلى يفطر على الاسبرين؟» فتسألنى: «أبك حاجة إلى الاسبرين؟» فأقول: «نعم بى حاجة اليه.. إلى صيدلية كاملة من الاسبرين... ولكنى سأحاول الاستغناء عنه.. إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة.. الناس غيرى يصبحون وريقهم يجرى على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاى والمربيات وما إلى ذلك. أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شىء من ذلك كل همه قرص من الاسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التى تحطم رأسه»

فتقول: «الذنب لك.. من قال لك افعل مافعلت البارحة؟»

فأقول: «يا ستى ان المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجىء دور الحساب... ثم إنى لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة.. كلا.. لا يختلج فى ذاكرتى شىء...»

وأما صاحبنا الذى كان يرى فتاته كل صباح فأحبها، فأقول له انهذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لى ما وقع له، أيام كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية، وكان بيتى فى «البغالة»، وطريقى إلى المدرسة من درب «الجماميز»، وكنت أرى فى كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الازار الأسود - وكان هذا هو اللباس الشائع فى ذلك الزمان - ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها، وهى ذاهبة إلى المدرسة السنية، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقى كل يوم، واستملحت وجهها، وأعجبنى قدها، فكنت أتعمد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة.

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرساً، وإنى لراكب مرة إلى الجيزة واذا بى أرى أمامى فتاتى القديمة، ومعها طفلان

فعرفتها ، فما تغيرت عن العهد بها ، ونظرت حولى فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها : « اسمحى لى . . إننا صديقان قديمان اذا كانت ذاكرتك كذاكرتى . . هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذى كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح فى شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة ؟ »

فابتسمت وقالت : « أظن أنى أذكره » .

قلت — ويداى على طفليها — : « وهذان ... المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدى ؟ » .

ففهمت وهزت رأسها أن نعم ، فقلت : « وتسمحين لى أن أقبلهما ، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما ؟ » .

فهزت رأسها مرة أخرى ، فقبلتهما وقلت كالمعتذر : « اذكرى أنهما كان يمكن أن يكونا لى » .

وقصت على قصة عجيبة ، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة ، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق ، فانتحر ، فسألتها : أين كنت تسكنين ؟ » ، فذكرت لى اسم الشارع والحارة ، فاذا الذى انتحر قريب لى ! وقلت لها : أما أنا وأنت فلم ننتحر ... آثرنا أن نتزوج ... أظن أن الأمرين سيان ... » .

فأنا أيضا أحببت فى الصباح ، كما أحب الفاضل الذى كتب إلى ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها .

وصاحبنا الذى سمع الصوت فى الصباح فتذكره — هذا أيضا لم يحبب على الريق وانما استيقظت فى نفسه ذكرى . ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لاستغرب ولكان قصاراه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته ، ولما منعه ذلك أن يتثاءب ويتمطى ويشتهى أن يعاوده النوم .

بقيت الزينة وأظن أنى قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة ، وانها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج فى أى وقت . فلا خلاف بينى وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة ، لأن طبيعتها تقضى عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الألوان . ولو ظللت تنهى المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هى تزهد فى المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدى أو نحوه . وما أكثر من قلت لهن : « أين منديلك ؟ » فتخرجه وتريتيه وتسألنى : « ماذا تريد أن تصنع به ؟ » ، فأقول : « لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطماطة المشقوقة ، فهاتى المنديل لأمسح هذا الأحمر » ، فتأبى وتقاوم ، فألح عليها وأقول : « ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل » فيكون هذا مغرياً لها بالاصرار على ترك الأحمر على شفتيها ، على حين كنت أظن — لغرورى — أنى زهدتها فيه . . ! !

وأحمد الله الذى أعفانى وأراحنى من سخافة المساحيق ، فان زوجتى لا تتخذها ، فليس فى بيتى ذرة من الأحمر أو الأبيض . ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو من هن فى حكمهن لتقض يوماً أو أياماً معنا ، أن تجىء معها بمساحيقها ، فلن تجد حتى ولا ما يُنفَضُ على الوجه بعد حلاقة الذقن . وأحسب أن زوجتى اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهى لا تعنى الآن بشىء من هذه المزينات . .

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطىء البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات ، الرشيقات ، المشوقات ، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذى عليها ، فإنى محتاج إلى عقلى كله . ولكنى أحسب الفاضل الذى كتب إلىّ يدعونى إلى ذلك ، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء ، لا حب ، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أى هؤلاء الجميلات أولى بحبه ، فان لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره . ولو أنى وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهى أن أضمهن كلهن فى عناق واحد ، فان الظلم قبيح . ونفسى لا تطاوعنى على غمط الجمال فى أية صورة من صوره . ومن يدرى ... لعل القدرة على إدراك معانى الجمال فى مظاهره المختلفة هى التى وقتنى الحب ، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها . ولكنى لست واثقاً أن هذا كهذا ، وإن كان يحلو لى أن أغرّ نفسى به . والأرجح انها بلادة ، وان جلدى سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة ، والنشاط الصحيح وبين الاعجاب والحب ؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشى الخيالية التى كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى ، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشأن فى كل

جهاد شعب مصر

فى سبيل حقوقه فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ألف الاستاذ محمد فريد أبو حديد كتاباً أسماه « سيرة السيد عمر مكرم » تتبع فيه تاريخ الحركة القومية فى مصر منذ القرن الثامن عشر وتناول سيرة « السيد عمر مكرم » زعيم مصر إذ ذاك ، وأوضح فيه سعى مصر إلى الحرية والاستقلال فى فجر العصر الحديث ، وبين أن الروح القومية والتطلع إلى الحرية كانا قويين منذ القرن الثامن عشر

والكتاب تحت الطبع ، وسيظهر قريبا ، وهذا الفصل الممتع من ذلك المؤلف القيم :



ولم يكن صوت المصريين داوياً فى مجتمعات الديوان وحدها ، بل كان للشعب منافذ أخرى يعبر بها عن إرادته ويردد منها شكواه ويرسم بوساطتها أمانيه ومثله العليا ، فان بعض المتكلمين من الوعاظ الدين كانوا يتعاقبون فى تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم فى المساجد فيلقون فيها دروساً فى معانى العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين ، ويدسون فى خلال تلك الدروس نقدات للحكام لا يخشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً ، وكان بعض الحكام يضيق بنقدهم ؛ ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على مايصدر عنهم من النقد . وكان نقدهم فى كل الأحوال نقداً عالياً نبيلا يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم ، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب . ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفنى الذى كان يعاصر ملك مصر العظيم على بك الكبير . وهو محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى الحسينى نسباً وكان زاهداً ورعا كريماً كثير البذل للفقراء . واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية وكثر أتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء فى ذلك العامة والخاصة ، حتى قال عنه الجبرتى صاحب « عجائب الآثار » : « إنه كان قطب رحى الديار المصرية لايتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته » ، وكان لا يتردد فى إبداء نصحه صريحاً قوياً وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته

وكان الشيخ الحفنى فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من اخوانه تمثيلا رائعاً ، حتى كان على بك الكبير على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى مايسىء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد وقف مرة يناقش فى ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد . وكان رأيه أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً »

ولما توفى الشيخ الحفنى حل محله فى زعامة النقد واعظ آخر وهو ابن النقيب السيد على بن موسى الحسينى المقدسى ، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف فى بيت المقدس . وكان واسع العلم يلقى دروساً فى المسجد الحسينى فى التفسير والفقه والحديث . وكان فوق ذلك كاتباً أديباً

مرض . والمرء يصاب بالأمراض فى حالتى الصحة والضعف ولكنه يكون أكثر تعرضاً للمرض فى حالة الفتور الخفى الذى يضعف المقاومة ، لأنه يغرى بالاطمئنان على حين ينبغى الحذر . أو هو فى حقيقته ضرب من الجوع كما قلت . وفى الناس الشره المبطان ، وفيهم القنوع الذى يكفيه اليسير الموجود . والجوع ضعف . والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الاغراء ما يملك الشبعان

هذا جواب بعض ما وردنى من المسائل . وقد مللت الحب وذكره ، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة ، قاتل الله الشعر والشعراء !!

ابراهيم عبد القادر المازنى

حسن الأسلوب ، وزاهداً لا يضن بشيء يملكه على سائليه . ولهذا كانت له مكانة عظيمة في قلوب الناس . وكان فوق كل هذا فارساً ماهراً في فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرماح،فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينهجون نهج القاضي عيسى الهكارى الذى كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبى واشترك معه فى محاربة الصليبيين .

وكان أهل مصر يعرفونه بالمحدث ، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يمتنع عن نقد ما كان يراه فيهم وفى أحكامهم من العيوب ، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف . ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به ، ولم يحدث له من وراء نقده أى ضرر . مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالى عام ١٧٦٣ للبلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلا فيها لما عرف عنه من الصراحة فى النقد ، واضطر إلى العودة إلى مصر . وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له فى مجلسه مع ما يلقى منه من النقد ، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح ، ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله ، وكيف وجد عاصمة الخلافة فى استامبول عند زيارته لها ، فكان جوابه على ذلك قوله : « لم يبق باستامبول خير ولا بمصر كذلك خير ، فلا يكرم بهما إلا شرار الخلق ، فلم يغضب الأمير من رده بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقضى بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كعادته .

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شيء من الاعتدال ، وهو الشيخ على الصعيدى وكان معاصراً لملكى مصر العظيمين على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب . وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقبلا يده ، ولم يردا له شفاعة ، وكان كثير الشفاعة عندهما ، يتدخل لمصالح الناس . فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبى الذى يسعى لمصالح الناس عند أهل الحكم . وكان الناس يلجأون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه ، فيكتب شكاواهم فى ثبت ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه فى شيء مما يرجوه فيه ، ولا ينقبض عنه ، وكان يقول لمحمد بك أبى الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد : « لا تضجر ولا تأسف على شيء يفوتك بغير حق فى الدنيا ، فان الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألنى الله عن تأخرنا عن نصحك ؛ وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة » . فاذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له : « اتق النار وعذاب جهنم » ثم يمسك يده ويقول له : « أنا خائف على هذه اليد من النار » .

وسنذكر فيما يأتى أسماء بعض زعماء الشعب الذين انتهجوا فيما بعد خطة أخرى غير النقد والنصح عندما تحولت مجارى الأمور فى أيام مراد وإبراهيم . وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر فى أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضياً عنه عند الشعب ، وأن يكونوا فى سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء ، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم ، فكانت مجالس على بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الأجلاء ، والزهاد الفضلاء . وكذلك كانت مجالس أبى الذهب من بعده ، فى حين كانت مجالس الأمير رضوان بعد ذلك مضرب الأمثال فى البهجة الفنية والسمو الأدبى ، حافلة بأسماء تباهى بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام ، وكان هذا التقريب عاملا من أقوى العوامل على إيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم ، وهو عطف كان يؤدى بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم .

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد ؛ تغير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لا بد له من انتهاج خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه ؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها . فان الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت ، وهى عصبة للشر ما كانت تنتبه إلى حق ، ولا ترعوى عن غى ، ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم ، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة ، ولم يكن للشعب بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعى الذى للشعوب وهو أن يرغم الحكام على الاصلاح ، وهكذا رأى أهل مصر ألا ملجأ

لهم من طغيان إبراهيم ومراد ، إلا أن يلجأوا إلى القوة والثورة.

بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ، ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون فيعصاه ، أم لابد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب ، وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان ، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء ، ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش . وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الامير الإذعان للحق ؛ وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون ، وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة .

فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم — وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه — بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير ، رحمه الله وطيب ثراه ، فأرعد الأمير المدل وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم . وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، وأشفقوا من تلك الحال فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته ، وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف.

وقد أثرت أمثال هذه الصيحة فى الأمراء ، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة ، حتى إنه عند ما أشيع مجيء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهراً ما فى نفسه من الألم، فحاولوا التقرب إلى زعمائه .

وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الامراء بقوله : « فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ، ثم الشيخ العروسى والشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت، فانه كان يخاف ذلك جداً » (١)

والحق أن شعب مصر كان عند ذلك قوى الاحساس بنفسه ، وبما ينبغى له من الحرية ، وما يجب له من الحقوق ، لا يتهاون فى إظهار ذلك الاحساس بشتى الوسائل كلما لاحت له فرصة ، أو كلما حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرماته . ولهذا كانت ثوراته تتوالى عند كل مناسبة ، فما تكاد ثورة تهدأ فى القاهرة حتى تشب أخت لها فى رشيد ، وما تكاد تلك تخبو حتى تبدأ أخرى فى بلبيس ، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنما هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا. ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ، ومن العبث بالحريات إلى أواخر ذلك القرن ؛ لا بل إن سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى أواسطه . فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وكل غيظ، ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك، وإنما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جاء عقبه . أما فى مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أقمنها أن تنتهى إما بثورة تامة كثورة فرنسا ، وإما بإصلاح تدريجى شامل يتناول كل نظمها .

وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا ليسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تحرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة، فقد كانوا دائماً ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد ، ويقومون ما يشير اليه من اعوجاج؛ وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك

فريد أبو حديد

(١) عجائب الآثار جزء ٢ ص ١١٨

مصر فى خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس فى تاريخ مصر الاسلامية أغمض من العصر التركى بل نستطيع أن نقول إن ليل الاسلام وليل الأمم العربية والاسلامية كلها يبتدىء بابتداء العصر التركى. وبينما نرى تاريخ مصر الاسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركى إذا بستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذى لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى؛ وفى هذه المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التى تلقى كبير ضوء على المجتمع المصرى، ولا يدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ولا يكاد يروى لنا شيئاً من الأحداث العظيمة أو الحوادث الشائقة، اللهم إلا فى أواخر هذا العصر، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبى، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركى، وبزوغ العصر الجديد.

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر فى تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب. وقد انتهت الينا طائفة من مشاهداتهم التى دونوها فى رحلاتهم، وهى وثائق لها قيمتها فى الكشف عن بعض نواحى المجتمع المصرى فى هذا العصر؛ ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة اطلاقا، وهى مذكرات الجبرتى التى تلقى أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر.

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص، وأن نستخرج من آثارهم مايفيد فى تعرف أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة. وسنبدأ اليوم باستعراض رحلة علامة وأديب دمشق وفد على مصر فى خاتمة القرن السابع عشر، وترك لنا عن رحلته بمصر أثراً يدون به بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر.

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى، وهو شخصية غريبة تستحق الدرس؛ بيد أنا نكتفى هنا بترجمته بايجاز، فهو عبد الغنى بن اسماعيل بن عبد الغنى ابن اسماعيل بن احمد النابلسى الحنفى الدمشقى النقشبندى القادرى، وينعت بشيخ الاسلام وأستاذ الأساتذة؛ ولد بدمشق فى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠م) ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو، وقرأ على أعظم شيوخ العصر فى دمشق، وانتظم منذ فتوته فى الطريقة القادرية ثم الطريقة النقشبندية، وانكب على قراءة الأدب الصوفى ولا سيما آثار محيي الدين ابن العربى؛ وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموى؛ وحمله تيار التصوف فى شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام فلزم داره مدى أعوام، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه، وأطلق أظافره، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن؛ ورماه خصومه بالزندقة واشتدت الحملة عليه؛ ولكنه تغلب على خصومه، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته؛ وكان مغرما بالسياحة، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ، سنة ١٠٧٥هـ (١٦٦٤م) ومكث بها حينا؛ ثم طاف بالشام وثغوره، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز؛ وانقطع للتدريس منذ سنة ١١١٥ هـ، وهو فى الخامسة والستين من عمره وأقام فى أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق، وعلا قدره وطارصيته، وتوفى سنة ١١٤٣ (١٧٣٠ م) وقد أربى على التسعين من عمره، ودفن بالصالحية، وقبره يعتبر مزارا يتبرك به إلى اليوم.

وكتب النابلسى عدة كبيرة من الكتب والرسائل فى التفسير والحديث والفقه والتصوف؛ وقد اشتهر بالأخص ببديعيته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وهى المسماة «نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار»؛ وله شرح لديوان ابن الفارض؛ ومنظومة فى تاريخ ملوك بنى عثمان؛ ودون رحلته عن الشام ومصر والحجاز فى سفر كبير أسماه «الحقيقة والمجاز»؛ وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة، اشتهر الكثير منها

في أنحاء العالم الإسلامي (١)

***

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التي قام بها عبد الغني النابلسي سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) في الشام ومصر والحجاز؛ وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفراً خاصاً عنوانه «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، لدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة(٢)؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين، والثاني للرحلة المصرية، والثالث لرحلة الحجاز؛ ويدون النابلسي رحلته بطريقة اليوميات، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته، ويستطرد في أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية؛ وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق في غرة المحرم سنة ١١٠٥، (٢ سبتمبر سنة ١٦٩٣) وطاف أولا بمدن الشام وثغوره، ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر في يومياته في اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة وذلك في ١٤ ربيع الثاني سنة ١١٠٥، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية في ٢٤ ربيع الثاني (أواخر ديسمبر سنة ١٦٩٣) وهو يحييها بإعجاب وحماسة كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب؛ ونزل ضيفاً على صديقه الشيخ شاهين بن فتح الله حيث أفرد له داراً خاصة ملاصقة لداره ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهته؛ وكان أول من استقبله من أعيان مصر عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكري، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية، ويشير النابلسي إلى فخامة هذه الدار وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة، ويصف البركة الشهيرة «ذات الروح والريحان التي فيها نفحة من نفحات الجنان»؛ ثم يصف الحمام المجاور لدار البكرية، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد. وقد دعاه إليه وتمتع بالاستحمام فيه. وكان والي مصر التركي يومئذ علي باشا خازن دار واليها من قبل السلطان احمد خان (١٦٩٠ — ٩٤)، فاستصحبه السيد البكري لزيارته بمنزله بالقصر العيني المطل على النيل؛ وكانت لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالي) فكان يدعوه للمنادمة، ويذهب النابلسي معه إلى مجلس الباشا فيقضيان في زيارته أوقاتاً طويلة

وزار النابلسي المحكمة وقاضيها التركي عارف افندي وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة، وزار مراد بك المصري وهو من أعيان الصناجق المصرية بقصره الفخم في «سبيل علام» على قيد ساعتين من القاهرة، وينعته «بفخر الاكارم والاماجد»، وقد أعجب النابلسي بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن رواتها، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع، وتطلق فيها مباخر العود والعنبر، وينتظم فيها أهل الفن ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب وتنشد فيها القصائد الغراء، وبالجملة، فقد كانت مجالس السحر والطرب والسمر الرفيع.

ويصف النابلسي جزيرة الروضة وجمالها، والمقياس وعجائبه وجامع عمرو وفخامته؛ ثم قلعة الجبل، وقد كانت مركز الوزير التركي (الوالي) وبها ديوان العساكر، ويصف لنا المؤرخ بئر «الحلزون» الشهيرة التي أنشأها بها السلطان الغوري لاستخراج الماء من أعماق الأرض. وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات كأنها مدينة مستقلة، وأبراجها العظيمة مما يلفت الأنظار، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية، وعمل السجاد للحرم الشريف.

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور المنوفي الشافعي الضرير، وكان يكثر من زيارته ويجتمع بأساتذته وطلابه ويستمع لبعض ما يلقى فيه من الدروس، ويقول لنا النابلسي إن طلبة الأزهر رجوه في إلقاء بعض دروس في الحديث فاعتذر إليهم، وكانوا يجتمعون حوله، ويلتمسون بركته، وهو يبكي تأثراً.

وكان الرحالة كثيراً ما يمر في غدواته وروحاته بباب زويلة، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب، ولم يفته أن يصف محلة زويلة، وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسميا، وهم طائفة المهرجين والحواة، الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافة ومزاراتها، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة،

(١) راجع في ترجمة عبد الغني النابلسي وذكر مؤلفاته سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (ج ٣ ص ٣٠ وما بعدها) وكذلك الجبرتي ج ١ ص ١٥٩

(٢) تحفظ هذه النسخة برقم ٢٤٤ جغرافيا

تتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة ؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة ، ومن ثم نراه يفيض في وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي ، وينوه بعظمتها وسحرها ، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء ؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة ، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة ، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوي على شيء

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج ؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الأمين ، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة ، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقاءه في مظاهر مؤثرة ، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة ١١٠٥) في ركب من المصريين والشاميين ، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها ، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية ، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

* * *

وإذا كان النابلسي لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم الينا عنه بيانات شافية ، فانه يقدم الينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر ؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها ، فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الشهيرة وغيرها مما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر ، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط ، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر . ولنذكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبرتي بنحو خمسين عاما فقط ، ومن ثم في وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

في الأدبين العربي والانجليزي

خاتمـــة

للأستاذ فخري أبو السعود

يروع الناظر في الأدبين العربي والانجليزي شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أي تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فيافي الجزيرة أحقاباً ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرقى منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها ؛ والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة لجولت في البحار ، وشاركت في تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت في الحضارة الأوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي ؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل الزابث في التاريخ والأدب الانجليزيين : ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم . على حال شبيه بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم

هوميروس ، وكان الأدبان تبعا لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر التالى ، وإن يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداوة والعزلة مبلغا من الرقى أعلى كثيراً من مبلغ الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوربية إلى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز إلى ما وراء البحر ، ففى كل من هذين العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها إمبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان أمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الأمبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا الفحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الاندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان إلى الوطن الاول فى طلب النموذج والمنهاج والوحى

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته : فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة ، واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها فى إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزى ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون ، ففى كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها بنيان ، الذى كان قساً ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل فى الذروة فى أدب اللغة .

تلك أمثلة من وجوه التشابه فى الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحى الأدب وتضرب جذورها فى صميمه : فالأدب العربى ازدهر فى كل دولة إسلامية فهو أشد تأثرا واصطباغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزى ، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الدينى فى أدبهم ؛ وقضت التقاليد التى نمت فى المجتمع الاسلامى بإسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها فى الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا فى أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربى يكاد يكون خلوا من ذلك ؛ وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الإغريقى القديم ، فكان لهذا الادب أبعد الآثار وأشملها فى الادب الانجليزى : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذى تصويره غرض الادب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزى صبغة إغريقية ظل الادب العربى

بعيداً عنها ، فان هذا الاخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الادبى الحافل فكان ذلك الاقبال على الادب الاغريقى من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعى اختلاف الادبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفنى للأدب حين يبلغ أوج رقيه ، رضخ العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الادب عن النقد والاصلاح وتلحق الادباء بحاشيتها ، فجاء الادب العربى بلاطياً فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويغفل الشعب وأحواله وآماله إلى حد بعيد ، على حين اعتمد الادب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشدان آماله ، فامتلأ الادب الانجليزى بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلأ الأدب العربى بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الادبين العربى والانجليزى ، صبغة الاخير الشعبية الفردية وصبغة الاول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها : فغلبت على الادب العربى — الذى تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الادب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ؛ وكان من دواعى تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالادب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى جمال الصناعة الادبية ، وقدم من جراء ذلك كله الاسلوب على المعنى ، وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة ، لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، واتسعت نظرته وسمت فكرته فى الحياة ؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى ان جمدت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر وإخصاب متزايد فى هذه النواحى جميعا .

ولسير الأدب العربى فى ركاب الامراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الأديب المفكر المحس ، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها ، واستلهام حكم التاريخ والتأنق فى وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآماد المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة ، كان الأدب العربى — لاعتماده على صلات الأمراء — فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مساً رفيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبى العرب وكتب الأدب الانجليزى ، وفحول هذا وأقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين أو كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك ، أو تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شىء من ذلك ، وليس بين الأدبين إلا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير

فإذا وازنا بين كبيرى شعراء الأدبين ، المتنبى وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبى موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً ، وشعر المتنبى ملىء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لايتوخى بلاغة الايجاز فى شىء ؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبى يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية ، بينا روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ،

وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ؛ وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت، والفقرات المتراوحة طولا، المتداخلة القوافى، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والادب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل إليه من المتقدمين، وهو القصيدة المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة، فلم يمنح الادب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله؛ وعاش المتنبى ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق، ساخطا على تبريزه فى مضمار الادب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيتس وجيبون وكارليل وما كولى من جهة أخرى، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الاول بواحد من الفريق الثانى، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الادبى، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد.

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، والجبلة والتقاليد والمنازع، وهذا التباين بين الادبين فى المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم، كل ذلك يجعل الموازنة بين الادبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر، وأدعاها إلى استخلاص المبادىء والنظريات الادبية، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتائجها، وقديما قيل: وبضدها تتميز الاشياء. ولو كان الادبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين، موزعا بين لسانين

فخرى أبو السعود

واجبنا الثقافى

نحـــو الآداب والفنون

للأستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لزلى إستيفن فى أول الفصل الثانى من كتابه العظيم «الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر» ما يلى:

إن الكتب التى هى بمثابة الدعائم الثابتة فى تاريخ الآداب، إنما تكون من طائفتين: احداهما طائفة الكتب التى تلخص جدل الماضى، والثانية طائفة الكتب التى تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن فى مطاويه كثيرا من الحقائق التى ينبغى لنا أن ننعم النظر فيها، ونطيل التأمل والاستبصار منها، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً: تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضى، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل. —

أما الكتب التى تلخص جدل الماضى فلا سبيل اليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى، لنستكمل بها - فى لغتنا العربية المنيفة - الأداة التى تعدنا لجدل المستقبل. وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التى تتضمن مشاكل الماضى وتعدنا لمشاكل المستقبل؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفى لتكوين الأديب الذى يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التى سوف تكون عدة الجدل فى المستقبل.

وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب اليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذى خلفته القرون الأولى، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقه التى تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التى هى عدة الجدل المستقبل، بلزوم الإكباب على درس ما يلخص جدل الماضى، من آثار الآداب والفنون.

* * *

عن لى أن أكتب فى هذا الموضوع، وأن أخص الرسالة بما أكتب، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجى الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التى يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدونى وحياته وأعماله، وقد أراد

أن يكتب رسالة فى تاريخ هذا الرجل وأن يعقد فى الرسالة فصلا يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدونى وذى القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم . وعبثاً ماحاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد فى اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً فى مثل هذا الدرس التاريخى الحافل . وهب أنى استطعت أن أقفه على اسم كتاب أو كتابين ، على تقدير ذلك ، فهل ذلك يغنيه عن الرجوع إلى المصادر القديمة التى تصدت لذكر الاسكندر المقدونى وفتوحاته ، مثل فلوطرخوس وإفليبوس وإسطرابون وبطليموس ويوستين وكورتيوس . وغيرهم وغيرهم ممن لاتحصيهم الذاكرة ، وهل ذلك يغنيه إذا أراد أن يكتب فى أخلاق الاسكندر عن درس المراجع التى كتبت فى فيليبس الثانى أبيه ، والمراجع التى كتبت فى صفات أمه أو لمبياس ؟ هل ذلك يغنيه عن أن يعرف أن هنالك قصة أكثر ما فيها خرافى تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر ، يرجح الثقات أنها كتبت فى مصر فى خلال القرن الثالث الميلادى ، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع ، وأن ذيوع هذه القصة كان سببا فيما ذاع عن الاسكندر من الخرافات ، حتى قيل إنه نبي مرة وإنه رسول مرة أخرى ؟

ذكرت للأديب العالم الذى سألنى بمجمل هذه الأشياء ، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الاسكندر على الصورة التى رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الاسكندر فى الشرق ؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التى قامت حقا فيه وتاريخها وأثرها فى نشر الثقافة الهلينية ، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الاسكندر ، وأن يلم بالحالات التى قامت فى بلاد فارس قبيل الفتح المقدونى .

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التى يحتاج اليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن بحثه هين وأن درسه سهل ، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون فى بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيه من نقص وجهل وتقليل ، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون فى مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضى ، ليكون للمستقبل جدله الخاص به ؟ وإنى لأقول آسفاً إن صديقى هذا على مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع ، قد اضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عربى المراجع . بحث من تلكم البحوث التى يعتمد فيها على كتب عربية لم يصقلها النقد ، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أنفقوا من وقتهم فى تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها ما يجدر بكتب هى فى الواقع مراجع العلم ومآل العالم فى البحث

***

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الاسكندر إلى غيره ، لأنه فقد المراجع التى يستطيع أن يتخذها عدة للبحث . ولم ينته الأمر عند ذلك . فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتابا يسألنى فيه عن المراجع العربية التى يستطيع أن يخلص منها بشىء من تاريخ تأسيس مدينة الاسكندرية والبحوث التى قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة ، ولقد أردت أن ألبى طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثرا ، ونقبت عن الكتب التى ألمت بشىء من تاريخ العصر المقدونى بمصر فلم أقف لها على وجود وفى النهاية اضطررت أن أكتب اليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الانجليزية ويراجع ما كتب مهفى وهوجارث واردن بيفن ، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديقى الأول :

وبعد فان أمثال الباحثين كثيرون ، يريدون أن يلخصوا جدل الماضى ، وأن يعدوا العدة لجدل المستقبل ، ولكن عمادهم مفقود ، وسلاحهم مفلول ، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما ، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهون نقل مراجعه إلى العربية ، بقدر ما يصعب نقل الآثار الادبية أو الفلسفية ، فلو أن كاتبا أراد أن يكتب فى تاريخ الشعر الاغريقى فأى المراجع يقصد وأى الابواب يلج ؟ ولو أن كاتبا آخر أراد أن يستقصى تاريخ المذاهب الفلسفية التى اندست فى ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان ، فأى الكتب يستذكر وأى المدونات يدرس ؟

دعك من كل هذا ، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الرومانى فى مصر ، أو أن يقف على شىء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها ، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية ، هيكلا يخلص منه تاريخ شامل لمصر فى خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل ، فأى الكتب العربية يستوحى وأى الابواب يطرق ؟

أما إذا كان هذا مقدار النقص الذى نحسه فى مراجعنا العربية فى مسائل هي أكثر المسائل مساسا بتاريخنا ، فكيف بنا إذا

أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافى وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الأوربى، أو التاريخ السياسى لدول أوربا فى القرن التاسع عشر، أو أثر الحروب الأوربية فى تكوين التصور السياسى الجديد فى القرن العشرين ؟

تشعرنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص، وأن علمنا ناقص، وأننا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد فى دفعها ونحن أكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف فى تاريخ العلم الحديث أو فى تاريخ الفكر عامة أو فى تاريخ الفنون أو الفلسفة.

* * *

مثل الظرف الذى تجتازه ثقافتنا، قد اجتازته من قبل أمم عديدة. والعرب فى العصر العباسى، وأوربا فى حدود القرون الوسطى، أقرب ما نمثل به، على أن احتياجنا إلى الكتب التى ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن، ونكمل بها عدتنا فى اللغة العربية، ينبغى أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يتعدى إلى الأمهات المؤلفة فى مختلف الموضوعات، ففى تاريخ اليونان مثلا تدعونا الحاجة إلى أن ننقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلا، وفى تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب ممزن الذى حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذى يبحث الأسباب السياسية التى أدت إلى ذلك الانحلال. كذلك ينبغى لنا أن ننقل إلى العربية كل المراجع التى تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن نلم بكل ما يتاح لنا الالمام به من المظان التى توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة. فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب ؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل فى مراجعنا شيء من المعاجم الآتية : —

(١) معجم لغوى تاريخى (٢) معجم اصطلاحى لمفردات العلوم
(٣) معجم لغوى عام (٤) معجم للآداب
(٥) معجم للفلسفة وعلم النفس (٦) معجم الأسماء القديمة
(٧) معجم الأسماء الحديثة : فى الجغرافيا والتاريخ
(٨) معجم الأسماء العربية (٩) معجم أسماء طبقات الحيوان
(١٠) معجم أسماء طبقات النبات (١١) معجم المصطلحات الاسلامية

إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة اليه.

وإنك إذا تصفحت رسالة فى التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية، ثم قارنتها برسالة فى نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الانجليزية أو الالمانية، لتعذر عليك فى كثير من الاحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان فى طريقة نقله إلى العربية، حتى لقد تقدم إلى كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة اسماء مختلفة عرضت فى درج رسائل فى التاريخ، وبمقارنتها اتضح لى أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة فى العربية. ولا شك فى أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمى على طلاب العلم وربما كانت سببا فى تناقضهم. واذا وقع التناقض للملمين بشىء من آداب اللغات الاروبية بسبب ذلك، فأحرى بمن يدرسون باللغة العربية خالصة، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الأوهام التى أكاد أجزم بأنها شائعة فى أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعا عظيما اذا تعرض أحدهم للكتابة فى غير الموضوعات الاسلامية، وما السبب فى هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الإعلام تجرى فى تعريب الأسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة، اللهم إلا ماعربه العرب، وهو قليل، فانه يبقى كما عربوه.

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة فى مصر، وتتبعوا أطوارها منذ مائة سنة، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءاً صالحا من العلم بحقائق الأشياء، والحقيقة التى أحسها تناقض هذا الخيال، فقد اتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقين: إما التلخيص وإما نقل نتف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعروفين، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة، فان هذه الثقافة لا يمكن أن تتلق نتفا وأقساطا إلا لتكون أدبا ناقصاً أو علماً ناقصا أو فناً ناقصاً، والمعرفة اذا اعتورها النقص فى الأصول التى تقوم عليها، امتنع عليها أن تكون أداة قويمة لخلق التصورات العامة فى العلم والأدب والفلسفة. وخلق التصور العام فى العلم والأدب والفلسفة هى الغاية التى يجب أن تنتهى إليها الثقافة العامة، هى المثل الأعلى الذى ينبغى أن ينشد من العلم، وهى الهدف الذى يجب أن يرمى اليه التعليم.

إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلمية والأدبية عن المعرفة الجديدة، وبالحرى عن الثقافة الاورية، إنما هو نتف وأجزاء، لها من الفائدة على قدر مافيها من تعبير صحيح عن مذاهب أصحابها، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقا قويماً

من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذى نشهده فى مجالى الأدب العصرى فى مصر والشرق. ذلك بأنه أدب اعتمد على نتف من قديمنا وعلى نتف من الحديث المنقول عن أوربا، اعتمد على

درس غير كامل لآدابنا القديمة ، وعلى درس غير كامل للآداب الأوربية ، فكان فى جملته أشبه ببقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً ، ولك أن تتصور مقدار ما فى ذلك الشىء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص ، إذا أنت صورت لنفسك حيوانا استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية .

* * *

تلك حال الأدب ، وهذه طريق العلم فى عهدنا الجديد ؛ فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة ؟

من الحقائق التى لا نزاع فيها ان ما استحدث حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نقصه ، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدهم على أصابع اليدين . على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوما على غرض رمت اليه ولا نظرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحو البلوغ اليه . ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ما جعلهم يفرون من ميدان العمل الواحد تلو الآخر ، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم وإما بعافيتهم ، تاركين للأقدار وزن ما جهدوا فيه وعملوا له السنين الطوال . ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا فى ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره فى الناس وفيهم حرارة الايمان وحماسة الاقتناع بصلاحيته ، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذى يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن فى المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التى يقوم من حولها جدل المستقبل . ولكن شيئاً من ذلك لم يعش فى بيئتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلا بأن لها أثراً ثابتا فى عقل الجماعات العلمية أو الأدبية فى هذه البلاد أو فى غيرها من بقاع الشرق .

فلا نكران إذن فى أن الافراد قد قاموا بأوفر نصيب فى تنشئة تلك الجرثومة التى تبعث فى أدبنا شيئا من مجالى الحياة ، ولا يطالب الافراد مطالب بأكثر مما جهدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجنى أقرب منه إلى الانصاف والعدل .

غير أن أمامنا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبى الجديد جهات أربع يجب أن نتوجه إليها بالكلام فى ختام هذه الكلمة

فان الأدب والعلم لم ينلهما حتى الآن نصيب من تقدير ظهراء لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد ممتازين فى المعرفة على اختلاف ألوانها إبراز آثارهم وتسجيلها فى تاريخ العصر الذى يعيشون فيه ولقد كان لظهراء العلم والمعرفة فى القرون الوسطى الأثر الأعظم فى نقل العلوم إلى أوربا ، كما كان لهم فى العصر العباسى الأثر الأدنى فى نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق . وفى مصر ولله الحمد فئة من هؤلاء . ولكنهم لا يفكرون فى الأدب أو فى العلم أو فى حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون فى أتفه الأشياء التى تمر بهم فى الحياة . وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتقريع . ولقد برهن هؤلاء على أنهم فى هذا العصر ، عصر النور والمعرفة ، أقل إجلالا للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن ، من أمراء المماليك رحمهم الله ، وقد ازدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم ، لأنهم كانوا ولا شك من أشد الأمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدبية كانت أو فنية . لقد كان أمراء المماليك ظهراء لرجال العلم نصراء لرجال الأدب وفى معتقدى أن ذلك أنفع وأروع ما خلفوا لأعقابهم من صالح الاعمال

بقى بعد ذلك جهات ثلاث : الأولى وزارة المعارف ، والثانية الجامعة المصرية ، والثالثة الأزهر الشريف ، ولا أعلم لماذا لا يكون فى كل من هذه الجهات مؤسسات علمية لترجمة ما يعنيها من المؤلفات قديمة وحديثة ؛ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا فى نهاية الأمم المتمدينة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية المبينة

سيظل أدبنا وعلمنا ناقصين من نقل المظان والأمهات إلى العربية ؛ فهل نحن فاعلون ؟

اسماعيل مظهر

على هامش رحلتي الى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ولابد أن هذا الأمر كان مقصوداً من الله جلت قدرته وهي بعض صفاته العليا. فالعلماء الذين يتجردون من المادة ويصعدون بأفكارهم إلى أعلى عليين، والصوفيون الذين يحاولون التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها، والفلاسفة الذين أرصدوا أنفسهم في سبيل البحث عن الحق المطلق الذي لا يلبس وليس له زمان. ألم يكن هؤلاء جميعا يحاولون الوصول من طرق مختلفة، إلى غرض واحد، هو الاشراف الباطني؟ تلك هي نعمة التجرد التي ترد الظلام كما يرده المشعل في الليل، وفي الوقت ذاته يعمى حامله إلا عن نفسه.

ولا يخفى أن النفس العربية نبتت في الصحراء القاحلة - أجل - لقد رأت ذلك النور المتألق في تلك الصحراء التي تحدها بحار من الرمال، ويعلوها أفق لا شائبة فيه حيث يستطيعون حتى في ضوء القمر أن يميزوا بين الظل والنور، بين الأسود والأبيض. ولكنهم قلما يدركون شيئاً من أسباب هذا التطور، ولا يعرفون ما تخفيه لهم الأقدار في رحلاتهم البعيدة وهم يجتازون مفاوز الصحراء، إنهم يستخفون بمظاهر هذا العالم الفاني لانهم يعتقدون اعتقاداً جازما بحياة أطيب وأنقى من تلك التي يعيشونها الآن، وللدار الآخرة خير وأبقى.

***

لقد راعني جلال الحفلة، فرأيت الرجال يضطجعون على الأرائك المبعثرة في أركان الثوى يتمتعون بلذة التدخين في ظل المصابيح ذات الضوء الشاحب، وعلى الرغم من أن التدخين محرم في الأراضي السعودية فقد ألفيت بعضهم يدخن النارجيلة ويسبح مع دخانها في عالم الخيال.

وقابلني رب الدار بكل بشاشة وترحاب وكذلك بقية الضيوف، وكان السرور يطفح من وجوههم والبشر يتألق على محياهم، وكانت أول تحية سمعتها من صاحبي قوله:

— على الرحب والسعة، الله سبحانه وتعالى يوليك برحمته ويمنحك بركته.

فأجبت: شكراً لك وللرفاق، وفي الحقيقة إنني مستأنس لوجودي بينكم، فلا حرمنا الله منكم.

ثم اتكأت على إحدى الارائك ووضعت وسادة تحت ذراعي. وفي الحال أحضر صاحب الدار نارجيلة مزخرفة بالنقوش بيد أني اعتذرت عن التدخين لعدم تعودي عليه من قبل، وانني أخشى أن يصيبني دوار منه، مع اعتقادي بأن في تدخين النارجيلة لذة وتنشيطاً للقريحة، وهو مظهر من مظاهر العز الشرقي البائد، حيث تظل رافعاً رأسك، محدقاً في غيرك وأنت ممسك بقبضة خرطوم النارجيلة.

في ذلك الثوى المثقل بدخان التبغ والذي كانت حرارته تكاد تصهر الوجه، رأيت لأول مرة منظر الجواري وهن يدخلن علينا بأكواب الشاي المعطر، وكانت إحداهن المسماة فريدة، عذراء في ريعان الصبا، وهي من جنوب بلاد العرب، صبوحة المحيا، بسامة الثغر، رشيقة في حركاتها، تخطو كخطو الغزال الوحشي. وكانت تحلى جيدها ومعصمها ببعض الحلى، وترتدي من الملابس أنخرها. وكانت عند ما تصل إلى موضع الضيف تحني رأسها بابتسامة ثم تقدم اليه الشراب المثلج.

هذه الجارية كانت مملوكة لصاحب الدار الذي يسيطر عليها سيطرة تامة، فمن حقه مثلا أن يبيعها أو يعتقها أو يهبها إلى غيره وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تدرك ذلك فقلما كانت تأبه بهذه الأحمال الثقيلة، بل كانت تتنقل من مكان إلى مكان دون خوف أو وجل، كعصفور موضوع في قفص يحوي طيوراً جارحة. أما الرجال فانهم يتسامرون في خلواتهم بأحاديث الهوى والعشق ويلتمسون في ذلك عزاء وسلوى. لأن المرأة في كل البلاد العربية لا يمكنها أن تشترك في الحفلات والمجتمعات، بل انهن يكتفين بالنظر خلسة إلى الرجال أثناء سمرهم، وهن

لا يعلمن شيئاً من مجريات الأمور الخارجية إلا ما يصل إلى سمعهن من الأحاديث التي تدور حول الموائد

ولقد أفضى إليّ أحد الضيوف المسمى الغرابي بحادث زواجه المرة الثانية وما لاقاه من زوجه الجديدة من عنت وقسوة عند ما أراد التبني بها . فالزواج في تلك الديار موكول إلى أهل الزوجة ، وعليهم أن ينتخبوا بأنفسهم الزوج الصالح لابنتهم ، أما القبائل البدوية التي ترابط خارج مكة فهم لا يتزوجون إلا من عشيرتهم . وذكر صاحبي الغرابي ، انه بعد إتمام مراسيم حفلة العرس ، تلك الحفلة التي يحتفل بها الرجال والنساء كل على حدته ، يدلف العريس إلى مخدعه حيث تكون العروس في انتظاره . ومن البديهي ان ذلك السيد الذي فرضوه عليها ، لم يقع نظرها عليه قبل الساعة .

يدخل صاحبنا المخدع الذي يكون مضاء بسرجة باهتة اللون ، وهناك يقع نظره على كومة منزوية في أحد الأركان وما تلك الكومة إلا عروسه ملفوفة بين الوسائد ، ومشدودة بالحبال . وتشعر بدخول عريسها فتخرج رأسها من بين تلك الوسائد - كما يخرج القنفذ رأسه - فيتقدم اليها بلطف محاولا أن يصافحها ، ولكن عوضاً عن أن تمد يدها اليه ، فانها تلطمه على خديه بكل قواها ، بحيث تبعده عنها . ثم يحاول أن يقترب منها المرة الثانية فيكون نصيبه مثل ما أصابه في المرة الأولى وربما أحدثت في يده جروحاً من أظافرها الطويلة - أما هو فيجد نفسه غير قادر على معاملتها بالمثل ، وبفرض أنه حاول أن يضربها ، فانها لا تحس بتأثير تلك الضربات التي لا تقع إلا على الوسائد . وفي هذه الحالة ليس من وسيلة أمامه سوى أن يشرع في تمزيق هذه الوسائد ، الواحدة بعد الأخرى . وهو في خلال هذه الفترة معرض لكل ضروب اللكم والعض والخربشة . ولا يكاد يفرغ من هذه العملية الشاقة حتى يضنيه الاجهاد فتهدأ ثائرة العروس وتبدأ تسلم نفسها اليه » .

وضحكنا ضحكا عالياً من هذا الحديث ثم أخذنا نتمتع باحتساء القهوة العربية واكل شرائح البطيخ . وكانت هذه القصة الطريفة بداءة السمر لأنهم استحضروا بعد ذلك حاكياً كان مخبأ في إحدى الزوايا ، وشرعوا يضعون عليه أقراصاً بها قصائد وأغاني تسودها مسحة من الحزن والكآبة . وارتفع صوت بعض الضيوف بأغان من نوع الرومبا ، وكان في ركن من أركان الثوى رجل يغني بواسطة عود يحمله ، وكان هذا الرجل قد تعلم هذا النوع من الضرب الموسيقي المصحوب بالغناء في فترة إقامته بالديار المصرية ولما رآني مهتما بالاغاني التي يذيعها اقترب مني وطلب إلي بالحاح أن أندمج معهم في هذا اللهو البريء ، فلبيت الطلب وتناولت العود فضممته إلى صدري ، كما تضم المرضعة فطيمها ، وسرعان ما تحركت أصابعي فوق الأوتار وانبعثت من حلقي أنشودة مجرية ، من نوع تلك الأغاني التي تعلمتها في البراري فسر المدعوون من تلك النغمات التي لم تألفها آذانهم وأقبلوا يصافحونني بحرارة . وهنا دخلت الجواري حاملات في أيديهن الصواني الطافحة بأنواع شتى من المرطبات ، ثم تقدمت احداهن فتصدرت الثوى وبدأت تطربنا بصوت عربي جميل يسيل رقة وليونة على حين كنا نتلذذ بالشراب المثلج سكارى من رائحة التبغ ومسرات الغناء .

والواقع أن هذه الأغاني الشعرية الرائعة هي إحدى عوائد العرب القديمة التي ما برحت نافذة إلى عصرنا الحاضر دون تغيير ولا تبديل . فالعرب عن بكرة أبيهم ميالون بفطرتهم إلى الشعر ، ففيه الحكمة التي تأخذ بمجامع اللب ، وله تأثير خاص على الحواس والمشاعر . مع أنهم في أحاديثهم الخاصة يلجأون إلى استعمال اللغة الدارجة ، وهي لهجة معقدة ليس في وسع كل إنسان أن يتفهمها بمجرد سماعها . وقد يتعذر على كثير من الناس أن يتذوقوا طلاوتها لأول وهلة ، رغم أنها حافلة بالألفاظ العذبة والنكات السمحة . أما الشعر العربي فيدور كله حول الغزل ، ويرجع الفضل في ازدهار حركة الشعر الغزلي إلى عمر بن أبي ربيعة الملقب « بدون جوان جزيرة العرب » .

وكانت الفتاة قد انتهت من غنائها فنهضت وغادرت الثوى ثم تقدمت اخرى وأنشدت قصيدة غرامية تفيض بالعواطف الذاتية ، وبعد ذلك خيم الصمت والسكون ، ولم يعد يسمع غير أصوات تقلب المياه في جوف النارجيلة ، واصوات

التنهدات والزفرات وهي تخرج قوية حارة من صدور الرجال وراعني هذا الصمت العميق الشامل، وأحسست أني تحت تأثير قوة مغناطيسية لا قوة لي على دفعها أو ردها، وراعني أيضا أنها كانت حالة جميع الضيوف تقريباً، فلقد رأيت أنهم يتوجعون ويتأوهون، ولاحظت أن البعض منهم يئن من لوعة الفراق، ويتذكرون خليلاتهم، فاقتربت من أحدهم ويدعى الكتبي وسألته على الفور:

هل أنت مغرم ياصاحبي إلى هذا الحد؟ فأحنى رأسه ولم يحر جواباً لأول وهلة، ولاحظت أن وجهه احتقن بالدم ثم سمعته بعد لحظة يقول:

ولكن ليس في وسعي أن أملكها، فأنا كما ترى رجل فقير، وهي من عائلة مثرية. ما حيلتي وقد وقعت في شراك غرامها وأصبحت أسير هواها؟ لقد أصبحت أسير امرأة ...

وكف عن الحديث فجأة، فطيبت خاطره وقلت له:

— ولكن المرأة التي تشير إليها ليست كسائر النساء

فقال الرجل:

— انك تقول الحق وتنطق بالصواب ولكن انظر إلى فقد أصبحت في حالة يرثى لها، بعد أن وقعت في غرامها. ما حيلتي وقد رزقها الله قداً نحيلا وقامة هيفاء، وعينين نجلاوين كعيني الغزال؟ انني أبتهل إلى الله ليل نهار أن يجعلها من نسائي ويرزقني منها الذرية الصالحة

وتأثرت تأثراً شديداً من حالة هذا العاشق المدنف وأردت أن أنتقل إلى صاحب آخر، وكان الليل قد انسلخ منه نحو ثلثيه، فألفيت الضيوف يسبحون في عالم الخيال وعالم الحب، وكلهم يشكون تباريح الهوى ولوعة الهجر، ولاحظت أن البعض منهم يبكون نساءهم ويندبون حظوظهم، وهكذا كانت ترتعد فرائصي من هول الموقف وأنا أفر من صاحب إلى صاحب

والخلاصة التي أستطيع أن أقررها أن هذه العواطف النبيلة التي اكتسبها البدو إن هي إلا أثر من آثار الصحراء التي يرجع الفضل إليها في تهذيب نفوسهم، وفي تلقينهم أصول هذا الغزل الذي قلما نجده في سواهم من الشباب

وحينذاك أخذ ضوء المصابيح يخفت فدخلت إحدى الجواري الحسان إلى البهو تحمل مصابيح أخرى جديدة بعد أن سحبت المصابيح المستعملة من داخل الفوانيس.

وكان من حظي أن اقتربت الجارية من ناحيتي ولاحظت أن وسادتي سقطت على الارض فالتقطتها من مكانها بمهارة وقدمتها إلي. هناك وقع نظري عليها وطالعت وجهها في ضوء المصباح اللامع، وراقني منها شعرها الأسود المتموج كخيوط الليل، وأسنانها اللؤلؤية وقامتها الهيفاء، كما أعجبت بحركاتها الرشيقة، فأدمنت النظر اليها وصرت أتبعها بخاطري وهي تتحرك كالطائر من غصن إلى غصن، ولاحظ مضيفي اهتمامي بهذه الجارية فاقترب مني وقال:

— هل أزعجتك عائشة؟

فأجبته على الفور:

— انها فتاة بديعة حقاً

ثم حاولت أن أغير مجرى الحديث، ولكنه أدرك حيلتي فقلت له: ماذا دهاك يا أخي؟ هل كنت سبباً في إيلامك؟

فأجاب: كلا! لا شيء مطلقاً، لقد اغتبطت حين سمعتك تطنب في جمال عائشة، لأنني شخصياً مفتون بها موله في حبها.

فقلت مبتسما:

— ولكن مادام الله قد من عليك بها فانك في نظري رجل سعيد.

فتبرم وقال في ضجر: أنا سعيد؟ ومن أين لي هذه السعادة؟

فقلت له: أليست عائشة ملك يمينك؟

فقال: أجل إنها لي، ولكنها جارية، ابتعتها بعشرين ديناراً من سوق الرقيق، كانت إذ ذاك في العاشرة من عمرها وهي الآن في السادسة عشرة.

فنظرت اليه في دهشة، بيد أنه أحنى رأسه ثم صرح لي أنه يحبها من أعماق قلبه، فسألته للمرة الثانية: وما يمنعك عنها وهي جاريتك وملك يمينك؟

فأجاب: هذا صحيح، ولكن دون ذلك خرط القتاد، فالانسان في هذا الوجود قد يبلغ قمة المجد وقد يصل إلى الشهرة وإلى المال ولكن هذه أمور ثانوية وليست لها أية قيمة إذا

لم تود بنا إلى حب جارية مملوكة .

فهززت رأسي وأعدت نفس السؤال : ولكنها ملك يمينك ؟

فقال : هذا صحيح . إن جسمها ملكي ولكن روحها ليست ملكاً لي. إنني لا أبغي منها ذلك الجسد ولا متعة الشهوة وحدها . بل أريد أن تبادلني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص .

وراحت الدموع تنحدر من عينيه وتسيل فوق خديه ، ورمقته بنظرة فيها كل معاني الشفقة والرثاء لحالته ، فهو والد وله أطفال وزوجتان أخشى عليهم جميعاً عاقبة هذا الحب الجديد .

وأعقب ذلك صمت طويل ، تذكرت في خلاله مواقف الحب وسلطانها على النفوس ، ثم رأيت أن أغادر الدار فودعت مضيفي وسرت اجتاز شوارع مكة الضيقة ، حتى وصلت إلى الميدان العام وكانت تخترقه قافلة يحدو أصحابها بغناء شجي مطلعه :

من ذا (بلمى) إن بكيت صبابة الدمع دمعي والعيون عيوني

عبد الكريم جرمانوس

موانع الابتكار في أدبنا الحديث

للأستاذ محمد يونس

> إنه ليسعدنا حقاً أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي نشعر فيه من جمهرة كتابنا أنهم أحلوا الابتكار محل المحاكاة وأبدعوا فيما يكتبون ابداعاً فيه غناء وإغناء للأدب العالمي العام
>
> الدكتور منصور فهمي مجلة المصرية

كان حديث الدكتور منصور فهمي في مجلة المصرية ذا شجون ، فقد تناول فيه الأدب العربي الحديث والأدباء بالنقد اللاذع ، وصورهم بصورة المقلد المفتون ، وعراهم من أردية المجد التي اكتسوها بعد الكفاح الطويل

وأنا وإن كنت إلى حد ما أؤيد الدكتور في أن أدبنا الحالي أدب تقليد ومحاكاة لا أدب ابتكار وإبداع ، فإني أخالفه في تحديد أدب المحاكاة عندنا وفي قيمة هذا الأدب ، ثم لا ألقي اللوم كله على الأدباء أنفسهم ، لأن الدوافع إلى المحاكاة كما سيرى القارئ قريباً أقوى من أن يغلبها الكاتب اللبيب

كان كلام الدكتور عن الأدب عاماً شاملا كل أنواعه ، ولكن من الظلم ونحن نلصق طابع التقليد على أدبنا الحديث أن نغفل طائفة خاصة من الكتاب برعت في الابتكار وأعني بها كتاب المقالة . فالمقالة خطت في الأدب العربي الحديث خطوات واسعة وأصبحت تتحدث في موضوعاتها الخاصة وأهدافها القريبة حديثاً وصل حد الابتداع عند كثير من الكتاب وها هي ذي المقالة العربية في مصر لا تقل عنها في البلدان الغربية إن هذه المقالات التي تقدمها إليك الصحف والمجلات تحركك معها إلى حيث تريد من حيث لا تريده أنت ، وتفهمك مطالبها بكل وضوح ، هي فخر الأدب الحديث . وكثيرون لدينا برعوا في حيل الاقناع وفي مفاجأة القارىء واللعب به وبكل ما يجعل للمقالة العربية مجدها وشخصيتها . إلى هنا يقف أدباؤنا عن الابتكار ، وما بقي من أنواع الأدب العربي أكثره خلو من الابتكار ، ولكن خلوه من الابتكار لا يعني فقره في الاجادة ودقة الانتاج ، فأدب المحاكاة أدب قائم بذاته له قيمته وفائدته ، وله - وهذا ما نريد الاشارة إليه في هذا المقال - أوانه ، ولا بد للأدب كما للمجتمعات البشرية من المرور في أدوار تاريخية مختلفة يتبع فيها سنة التطور ومنطق التدرج وهو قانون ثابت لا تفيد معه ثورة الأديب ، ولا ألقاب الابتكار والتجديد التي تمنح له بغير حساب

وهذا الدور في الأدب العربي ، دور محاكاة ونقل تتجه فيه العبقرية راضية أو غير راضية إلى النقل عن أدب الغرب أو إحياء ما اندرس من أدب العرب ، وهو تيار جارف لا يقف أمامه كاتب مهما كبر ، ولذلك فشلت محاولات الابتكار عند كبار أدبائنا . هذه محاولات شتى قام بها كثيرون منهم في السنوات الأخيرة وأرادوا أن يظهروا بها الابتكار والابداع . ليقرأها القارىء جيداً وليحكم عليها من غير مداجاة ، ألا يرى عليها الهزال والشحوب ؟ فيدرك أن هذه الجهود المبتورة

لاتناسب اسم اولئك الكتاب وما لهم من مجد عظيم نالوه عن طريق النقل .

وما يقال عن النثر يقال عن الشعر أيضاً . ولقد أدرك شوقى — رحمه الله — فى أواخر أيامه أن خير ما يختم به إنتاجه قصص شعرية ، عجز عن أن يستمدها من المحيط الذى يعيش فيه فرجع إلى كليوباتره فى التاريخ المصرى ومجنون ليلى فى التاريخ العربى ، وكأن الحياة الدارجة ما استطاعت أن تلهم الشاعر الموهوب موضوعاً لرواية قوية تقترن بحياة هذا الجيل

ولا عيب على هؤلاء الأدباء أن ينجحوا فى دور الناقل ويخفقوا فى دور المبتكر ، ولا ينقص من قيمة جهدهم أن يبرز فى النقل وحده ، فالأدب المنقول يؤدى واجباً كبيراً فى خدمة الأمة العربية ويشغل حلقة لابد منها للوصل بين الماضى والمستقبل ، هى قسمة لابدمنها وتوزيع لنوع الانتاج بين أدباء المستقبل وأدباء اليوم الذين كان من حظهم أن يأتوا فى فى هذا العهد ، عهد النقل فلا يسطع نجمهم إلا فيه ولا يذهب تقيدهم به سناء عبقريتهم

وهنا من حق القارىء أن يسألنى : لماذا يعجز أدباؤنا عن الابتكار ؟ أهو كسل منهم كما يقول الأستاذ المازنى وفيهم النشاط الجم . أم فقر فى المواهب . وفيهم العبقرى الموهوب أم فقر فى المحيط وهو عامر بشتى الصور والمفاجآت ؟

وقد ثار مثل هذا التساؤل من حين قصير بين أدباء الانكليز وتناول ناقدان كبيران البحث عن أسباب جمود الأدب الانكليزى الحديث (ولاسيما فى ناحية القصة التى تجتاح أكثر ميادين الأدب الغربى) وتأخره عن الأدب الامريكى الذى أصبح يخطو خطوات واسعة وينتج آثاراً مدهشة .

قال أولهم : إن الابتكار — وليدما أسماه شعوراً بالاستغراب يأخذ على الكاتب أنفاسه ويدفعه فى مجالى الابداع ، ومتى عجز المحيط عن إثارة مثل هذا الشعور فى الكاتب إما لكثرة الصور السابقة المرسومة عنه أو لفقره خلا جو الأدب من المبتكرين

وقال الثانى : إن الاديب يبتكر يوم يثق بمحيطه ويؤمن به ، ويعجز عن الابتكار اذا فقد هذه الثقة فلا يثير فيه العناية بدرسه وتصويره بلونه الخاص

وإنى أرى أن المانع من الابتكار فى الأدب العربى ، مزيج من السببين .

ولقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تكون الحالة واحدة فى المحيط الانكليزى الذى كثرت الصور عنه وفى المحيط العربى الحديث الذى لم ترسم له صورة صحيحة باهرة إلى الآن ، ولكن هذا نتيجة فقدان الشعور بالاستغراب ، أما فى الأول فأحسب القارىء قد فهم سببه وهو كثرة الصور الباهرة التى رسمها لهذا المحيط أكابر الكتاب فلم تترك مجالا للمزيد ؛ وأما فى الثانى فلأن هذا المحيط لا يمكن أن يثير الكاتب إلى الاهتمام به ما دام فكره مشدوهاً بأنوار أخرى بديعة تأتيه من بعيد .

أرجو أن يتصور القارىء نفسه مكان الاديب العربى اليوم : فهو إذا كان مجدداً لا يزال مسحوراً بصور الأدب الغربى العامرة وما فيها من عبقرية ونبوغ ؛ وإذا كان من دعاة القديم فلا يزال مفتوناً بالصنعة الباهرة وقوة الاندفاع والحيوية التى يشهدها عند الجاحظ أو المتنبى مثلا . إن هذه الصور تأخذ بلبه فتشغله عن المحيط الذى هو فيه وهو لا يزال محدقاً بها غير ملتفت إلى ما حوله ما دامت أضواؤها الخلابة تبهر عينيه . وإنى لأشعر أن هذا الكاتب المنصف لنفسه ولقارئه إذا حاول رسم صورة لشخص من الذين حوله يقعده عن المحاولة ما يراه من تصوير باهر لأساتذة كبار كموباسان ودكنز . فيقول فى نفسه : خير أن أنقل هذه الصور الغربية للناس من أن أقحمهم على مجازفاتى فى التصوير . ويقعد عن الابتكار .

ومثله هنا مثل العاقل لا يشعل سراجه ما دامت الشمس طالعة ، فهو يكتفى بفتح باب النافذة فتضىء أشعتها المكان وليس فى هذا عيب على كهرباء البيت ولا انتقاص لمخترعها العظيم .

ولن يشعل صاحبنا العاقل كهرباءه إلا ساعة تغيب الشمس وهى هنا فى الأدب الساعة التى تذهب فيها دهشة الأديب من منتجات الأدب الغربى أو العربى القديم .

وهنا يدخل السبب الآخر الذى ذهب اليه الناقد الانكليزى الثانى ، فان انبهار الأديب العربى بصور الأدب الغربى أو العربى القديم يبهت أمامه صور محيطه ويضعف ثقته فيه ، فلا يزال هذا المحيط متردداً بين الغرب والشرق وبين الجديد والقديم وبين التقليد والرجعية وقد فقد شخصيته المستقلة القديمة التى تثير الكاتب إلى التغنى بامجادها ، ولم يكتسب الشخصية الجديدة التى تثيره إلى الاشادة بقوتها ، ولذلك كان طبيعياً أن يذهب الكتاب والشعراء الى المحيطين البعيدين ، الغربى والعربى القديم ، لأن شخصيتيهما أقوى وأتم .

وأظن القارىء أدرك الآن لماذا اندفع شعراء العصر الأول من الاسلام فى الابتكار فى الشعر لأن المحيط الجديد الذى خرج اليه العرب من الجزيرة كان عامراً مدهشاً وهكذا ذهب أبو نواس المشدوه بالمحيط الجديد يفاخر به ويتهكم على شعراء الجاهلية ، أما ابن المعتز الذى الف حياة النعيم الجديد إلى حد ما ، فكانت أحسن نفحاته هى التى يستمد وحيها من الصحراء ومعانيها التى أصبحت غريبة عنه تثير استغرابه أكثر مما حوله . وان كانت نضارة هذا المحيط الباقية حافزة له على عدم التخلى عنه تماماً كما صنع الذين جاءوا بعده ممن ذبلت أمامهم زهرة المحيط الجديد وعاشوا فى العهد المتأخر فرجعوا إلى تراث الجاهلية يقلدونه تقليداً فاضحا لأن هذا الشعر الجاهلى أقوى شخصية وأسطع نوراً من أى شعر جاء بعده

ونعود إلى أدبائنا اليوم ، فهم مهما غالوا فى المكابرة لا يستطيعون إنكار زهدهم واستخفافهم بهذا المحيط الباهت الألوان الفقير إلى الأمجاد الباهرة ، ولذلك فهم لن يبتكروا إلا يوم يؤمنون به ، ولا يؤمنون به إلا متى ذهب أثر الدهشة التى يحدثها الأدب الغربى الجديد أو العربى القديم فى أذهانهم ، على أن ترافق هذا زيادة فى سطوع المحيط .

هذه هى موانع الابتكار وهى قوية لا يستطيع الكاتب مهما كانت عبقريته التخلص منها

خير لأدباء هذا الجيل أن يكتفوا بأدب النقل ويجودوا فيه ويهيئوا المجال للجيل القادم فان مجدهم لن يقوم إلا على النقل وهو مجد له خلوده .

(نزيل القاهرة) **محمد يونس**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

---

١٠٢ — فيه غيره . . .

ابن الشبل البغدادى :

وكأنما الانسان فيه غيره	متكوناً والحسن فيه معار
متصرف وله القضاء مصرف	ومكلف وكأنه مختار
طوراً تصوّب به الحظوظ وتارة	خطأ تحيل صوابه الأقدار (١)
تعمى بصيرته ويبصر بعد ما	لا يسترد الفائت استبصار (٢)
فتراه يؤخذ قلبه من صدره	ويرد فيه وقد جرى المقدار
فيظل يضرب بالملامة نفسه	ندماً إذا لعبت به الأفكار
لا يعرف الافراط فى إيراده	حتى يبينه له الأصدار

١٠٣ — لم تبلغ قدريتى هذا كله

حدث المبرد : قال رجل لثمامة (القدرى المعتزلى) : أنت إن شئت قضى فلان حاجتى

فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدريتى هذا كله ؛ انما قلتُ : (إن شئتُ فعلتُ) (٣) ولم أقل : إن شئتُ فعل فلان

١٠٤ — جد الأدب جد وهزله هزل

قال خالد بن يزيد الكاتب : لما بويع ابراهيم بن المهدى طلبنى ، وقد كان يعرفنى وكنت متصلا ببعض أسبابه (٤) . فقال : ياخالد ، أنشدنى من شعرك

---

(١) تحيل صوابه : تجعل صوابه خطأ

(٢) استبصر الشىء : استبانه ، وفيه : تأمل

(٣) فى شرح المقاصد : « اتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ . . . على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرهم ، واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة »

والجبرية تخالف القدرية فى مقالتها . فى (التعريفات) : الجبرية من الجبر وهو إسناد فعل العبد إلى الله والجبرية اثنان : متوسطة تثبت للعبد كسبا فى الفعل كالأشعرية ، وخالصة لا تثبت كالجهمية أصحاب جهم بن صفوان

(٤) أسبابه : رجاله (حاشيته)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ليس شعرى من الشعر الذى قال فيه رسول الله : « إن من الشعر حُكما (١) » ، وإنما أمزح وأهزل ، وليس مما ينشده أمير المؤمنين

فقال لى : لا تقل هذا ياخالد ، فان جد الأدب جد ، وهزله هزل ، أنشدنى ، فأنشدته :

عش فحبيــك سريعاً قاتلى والضنى إن لم تصلنى واصلى
ظفر الشوق بقلب كمــد فيك ، والسقم بجسم ناحل
فهمـا بين اكتئاب وبلى تركانى كالقضـيب الذابل
وبكى العاذل لى من رحمــة فبكائى لبـكاء العاذل

فاستملح ذلك ، ووصلنى

١٠٥ — ندمان الفتى قبل كأسه

العطوى (أبو عبد الرحمن) :

يقولون قبل الدار جار موافق وقبل طريق المرء أنس رفيق

فقلت :

وندمان الفتى قبـل كأسه
فما حث سير الكأس مثل صديق

١٠٦ — المليحة

قال ابن أبى الحديد : وجدت بخط أبى محمد عبد الله بن احمد الخشاب فى تعاليق مسودة أبياتا للعطوى وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمين
شمس الضحى وبدر الظــلام
فوحق البيان يعضده البرهان
فى مأقط ألد الخصام (٢)
ما رأينـا سوى المليحة شيئا
جمع الحسن كله فى نظام
فهى تجرى مجرى الاصالة فى الرأى
ومجرى الأرواح فى الأجســام

(١) الحكم : الحكمة ويروي أن من الشعر لحكمة . فى (النهاية) : قيل أراد بها المواعظ والامثال التى ينتفع بها

(٢) (البرهان) الحجة (المأقط) موضع الحرب فنضربه مثلا لموضع المناظرة والمحاجة . والالد الشديد الخصومة (للمبرد)

وقد كتب ابن الخشاب تحت المليحة : ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة !

١٠٧ — شهود ثقات

أنشد رجل الامام ابراهيم الحربى قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شىء أحسن من ذلة المحب
أليس شوقى ، وفيض دمعى وضعف جسمى ، شهود حب

فقال ابراهيم : هؤلاء شهود ثقات . . .

١٠٨ — هذا من خاطر الجن

قال الصولى : حدثنى على بن عيسى قال : كان البحترى معى جالسا . فسلم علىّ ابن لعيسى بن المنصور ، فقال لى : من هذا قلت : هذا ابن عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يسـتطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فقال لى : أف ، وتف ! هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى

١٠٩ — وإذا غاب فبالثانى

(فى محاضرات الأدباء) للراغب :

قال خالد بن صفوان لجاريته : أطعمينا جبناً فانه يشهى الطعام ويدبغ المعدة (١) ، ويهيج الشهوة ، فقالت : ما عندنا

فقال : ما عليك ، فانه يقدح فى الأسنان ، ويلين البطن وهو من طعام أهل الذمة .

فقال بعض أصحابه : بأى القولين نأخذ ؟

فقال : إذا حضر فبالأول ، وإذا غاب فبالثانى

١١٠ — استمرت التاريخ

قال الفقيه المقرى : أنشدت يوما الابلى قول ابن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه وبكحله الأموات والأحياء
فاذا مررت رأيت من عميانه أمما على أمواته قــدّاء

فاستعادنى حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى

(١) بفتح الميم وكسر العين ، وبكسر الميم وسكون العين . والجمع معد بفتح الميم وكسر العين ، وبكسر الميم وفتح العين

الشعر وانفعاله ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذى لا أعرف له ثانياً فيه ، فقال : أظننت أنى استحسنت الشعر ؟

فقلت : مثلك يستحسن هذا الشعر

فقال : تعرفت منه ان العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرأون على المقابر فانى كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ

١١١ — . . . حتى أتى الله بالفرج

فى (العقد) : قال عبد الله بن مسلم بن جندب :

تعالوا أعينونى على الليل إنه — على كل عين لا تنام ، طويل

قال عبد الله : فطرقنى عيسى بن طلحة فقال لى : سمعت قولك فجئت أعينك

فقلت : يرحمك الله ، أغفلت الاجابة حتى أتى الله بالفرج

١١٢ — وآباؤنا أفعال غيرنا

أتى ضرار المتكلم بمجوسى ليكلمه فقال : أبو من أنت ؟

فقال : نحن أجل من أن ننسب إلى أبنائنا إنما ننسب إلى آبائنا

فورد على ضرار ما لم يكن فى حسابه . فأطرق ساعة ثم قال : أبناؤنا أفعالنا وآباؤنا أفعال غيرنا

١١٣ — ليته جور مشاع

عبدان الأصبهانى :

تكلفنى التصبر والتسلى — وهل يسطاع إلا المستطاع ؟

وقالوا قسمة نزلت بعدل — فقلنا ليته جور مشاع !!

١١٤ — وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

قال المبرد : حدثنى الزيادى قال : قيل لأعرابى : ألا تخضب بالوسمة (١) ؟

فقال : لم ذاك ؟

قال : لتصبو إليك النساء

فقال : أما نساؤنا فما يرون بنا بديلا ، وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

(١) الوسمة : (بكسر السين وقد تسكن) نبت يختضب بورقه

١١٥ — كيف يصوغ الموسيقى الألحان

قال الرشيد لابراهيم الموْصلى : كيف تصوغ الألحان ؟

فقال : ياأمير المؤمنين أخرج الهم من قلبى وأمثل الطرب بين عينى ، فتنزع إلىّ مسالك الألحان فأسالكها بدليل من الايقاع (١) فلا أرجع خائباً

فقال له الرشيد : يحقّ لك (ياابراهيم) أن تدرك ماطلبت

١١٦ — ان الحديث مع الغناء حرام

احمد بن علّويه الكرمانى :

حُكمُ الغناء تسمّع ومدام — ماللغناء مع الحديث نظام

لو أننى قاض قضيت قضيّة — أن الحديث مع الغناء حرام

١١٧ — اعطنى فروتى

فى الشرح الكبير للشريشى ، قال بعضهم : كنت فى متنزه لى وإذا شيخ معه صبى فى يوم بارد فكنت أسمع الصبى يقول للشيخ : أعطنى فروتى ، فيناوله شيئا لا أتبينه . فبعثت غلامى ينظر إليه فإذا عند الشيخ قنينة ، كلما طلب الصبى فروته سقاه قدحاً .

(١) الايقاع ايقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الالحان ويبنيها تبيينا ، هكذا هو فى اللسان والعباب وفى بعض النسخ ويبنيها من البناء ، وسمى الخليل كتابا من كتبه فى ذلك المعنى كتاب الايقاع (التاج)

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٠ —

الفلسفة الهندية

البراهمية الأولى أو الأورثوذوكسية

تشبه آلهة البراهمية الأولى بوجه عام آلهة الإغريق ، إذ لا يخفى على الباحث — إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة — ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة « الفيدا » و آلهة « الإلياذة » و « الأودسا » تلك المشابهة التي لا تجعل مجالا للشك في أن آلهة الكتابين من أسرة واحدة يتفقون جميعاً في البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفي الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة في آلهة الأشوريين أو البابليين مثلا ، وهم يتفقون كذلك في القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببني البشر مثلا في الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم .

ومما يلفت النظر في هذه المشابهة هو بساطة اختصاص آلهة « الفيدا » كآلهة « الإلياذة » و « الأودسا » وخلوها من التعقيد الذي كان فيما بعد من مميزات الديانة « الأندويسمية » التي ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين : « الفيدية » والهندية المحلية القديمة ، فـ « أندرا » مثلا هو كبير الآلهة وهو إله السماء والمناخ ، و « رودرا » و « أجني » هما صاحباه وساعداه على تصريف شئون الكون . و « جاما » إله الموت و « أوسهاس » إلهة الفجر . وهكذا كل إله له اختصاص محدد ودائرة محصورة .

بدء الخلق

تعتنق « البراهمية » الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين قديمتين فأما أولاهما ، فهي أن الإله « براجاباتي » هو في نفس الوقت خالق ومخلوق ، لأنه كان في أول الأمر واحداً فاشتاق إلى التكثر وتمناه . فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله . فضحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزاءه في جميع البقاع ، لتحقق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء ، وهذا الشوق هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون ، وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي الضحايا التي يقوم بها بنو البشر .

على أن الوصول النهائي إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً ، لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة وبالضحايا المقدمة من بني الإنسان من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاها هذا الإله بنفسه من نفسه رغبة منه في إنشاء كون وتكثير وحداته . وستظل هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التي لا يمتاز مبدؤها عن منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون ، ولكن القرابين والضحايا هي أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتناثرة فيجمع شتاتها ، إذ هي العامل الأوحد الذي يصل بين الإله والأناسي من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة أخرى ، وأكثر من هذا أنها هي التي تعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تناثر أجزائه .

هذه هي الأسطورة الأولى في عقيدة بدء الخلق ، أما الثانية فهي أن الإله « براجاباتي » أحس يوماً بشغف مادي شديد نحو ابنة « أوسهاس » إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعا شديدا وفرت من وجهه مذعورة ، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها ، فكلما تشكلت بأنثى كائن من الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن ، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته ، فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود .

وحدة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الاولى أن سرت في تلك البلاد

فكرة وحدة وجود ساذجة لم تلبث أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية ، تلك الوحدة التى أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة . وها هو ذا البيرونى يحدثنا عن وحدة الوجود فى الديانة الهندية بعد تاريخ « الفيدا » بضعة وعشرين قرنا فيقول : « قال (باسديو) فى كتاب (بكيتا) : أما عند التحقيق فجميع الاشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعله ماء ليغذيهم، وجعله ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم ، وجعله قلبا لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور فى بيذ(١) » .

اختلاف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندى فى عهد البراهمية الاولى أربعاً ، أولاها البراهمة « Brahmanes » وهم الكهنة ثانيها (كساتريا) « Ksatriyas » ويسميها البيرنى (كشتر) وهى طبقة الجند . ثالثتها طبقة « Vaicyas الفيسيا » ويسميها البيرونى « بيسن » وهى طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع . رابعتها « سودرا Çudras » ويسميها البيرونى (سودر) وهى طبقة الأرقاء ، ومما جاء فى كتاب البيرونى عن هذه الطبقات قوله : « وهذه الطبقات فى أول الأمر أربع ، علياها البراهمة قد ذكروا فى كتابهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التى تتلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمه غير متباعدة جداً ، ودونهم (بيش) ثم (شودر) خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان » (٢)

كتابهم الأول المقدس — الفيدا

ليست « الفيدا » كتاباً هندياً أصلياً وإنما هى كتاب « أندوآرى » حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى « البنجاب » المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً . وإذاً ، فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهرة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا ، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارىء صوراً عقلية واجتماعية هي على طرفى نقيض مع الصور التى اكتشفها الأثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة ، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة « السانسكريتية » التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتى هى لغة الآريين وحدهم .

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تاريخ الديانة الهندية ، وسيظل كذلك — رغم يقيننا بأجنبيته — حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله فى هذه الأولوية من الكتب المقدسه القديمة .

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت « الفيدا » وإنما كل الذى ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون ، ويرجح بعض العلماء أنه قد جمع فى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن تياره القوى لم يستطع أن يجرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندى ، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا ، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكانتها فى نفوسهم احتفاظاً كان فى أول الأمر صامتاً أمام قوة الديانة الأجنبية المنتصرة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى وينتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشىء الكثير على مسرح الوجود .

لكلمة « الفيدا » عدة معان ، أدقها : « العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول » . وينجم عن هذا التعريف أن تكون « الفيدا » منبع جميع المعارف الهندية من : دينيات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية ، وهى تحتوى أوراداً تعبدية وأناشيد دينية ، وتعاويذ سحرية نزل بها الوحى من عند الله على قلب « براهما » فتلاها على الناس فاستظهروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتنهوا أسرارها . وهى مؤلفة من اربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى « رك بيذ »

(١) صفحة ١٩ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » « لأبى الريحان البيرونى »

(٢) أنظر صفحة ٤٩ من كتاب البيرونى

Rec-Veda «رك فيدا»، وهى تحتوى على الأوراد. والثانية تسمى: «سام بيذ» Saman-Veda، «سامان فيدا»، وتحتوى على الأناشيد. والثالثة «جزر بيذ» Gajus Veda «ياجوس فيدا»، وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين. والرابعة «أثارفين – بيذ» Atharvan-Veda «أتهارفان فيدا»، وتحتوى على التعاويذ السحرية.

هذا، واليك ما كتبه أبو الريحان البيرونى عن هذا الكتاب: «بيذ» تفسيره العلم بما ليس بمعلوم، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم «براهم»، ويتلوه «البراهمة» تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم. وأقل من ذلك من يتصرف فى معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه «كشتر»[1] فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن، ثم لا يحل لبيش[2] ولا لشودر[3] أن يسمعاه فضلا عن أن يتلفظا به ويقرآه، وإن صح ذلك على أحدهما دفعته البراهمة إلى الوالى فعاقبه بقطع اللسان. ويتضمن «بيذ» الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التى لا تكاد تحصى كثرة وعسرة، ولا يجوزون كتابته، لأنه مقروء بألحان، فيتحرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً فى المكتوب. ولهذا فاتهم مراراً[4] ويروى لنا البيرونى كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن «الفيدا» معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتى من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتى بمثله، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاءهم قادرون على الاتيان بمثله ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له».

ولعلك – إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الاسلامية – تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثيرت بين علماء المسلمين، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التى وجد عليها بين البراهمة، فذهبت الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين إلى أنه ليس فى طاقة البشر الاتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة، وذهبت أقلية من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسر إرادتهم عن هذه المحاكاة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوى مع القرآن فى البلاغة ويصعد إلى طبقته فى الفصاحة والاتقان لأمكن للفصحاء تقليده. وإذاً فالعجز عن الاتيان بمثل القرآن فى رأى هذا الفريق ليس أصلياً فى عقول الفصحاء، وإنما هو عارض دعا اليه إجلال القرآن. ونحن نرجح أن عناصر الخلاف فى هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هى دخيلة جاءتهم من الديانة الهندية، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندى لظلوا جميعاً على رأى واحد فى هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد بقوله: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»، إلا إعلان العجز الطبيعى الأصيل، وإلا لما صح التحدى، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم لا تدعه على حريتـه، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه وإذاً، فلو دقق هذا الفريق النظر فى الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب اليه.

هذا، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة فى تقديس كتاب الفيدا هى التى حالت بينه وبين التبديل والعبث اللذين وقعا فى كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك فى حينه

(يتبع) **غلاب**

استدراك: وقع خطأ فى المقال السابق عدد ٢٠٦ بأن وضع سطر أوله: غير أن النار... الخ فى آخر ص ٩٨٦ وصحته فى آخر ص ٩٨٧ فوجب التنبيه

(١) كشتر (٢) بيش (٣) شودر، أسماء طبقات فى الهند كما قدمنا
(٤) راجع صفحة ٦٠ من كتاب البيرونى المذكور

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الانتصار على الذات

ليست إرادة الحق فى عرفكم ، أيها الحكماء ، إلا تلك القوة التى تحفزكم وتضطرم فيكم ، تلك هى إرادتكم التى أسميها أنا (إرادة تصور الوجود) فانكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم ، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لارادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل

هـذا ما تطمحون إليه ، يا أحكم الحكماء ، وتلك هى إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء .

انكم تريدون خلق عالم يمكن لكم أن تجثوا أمامه ، تلك هى نهاية نشوتكم وآخر أمنية لكم . ولكن البسطاء الذين يدعون شعبا يشبهون نهراً تخوضه أبداً ماخرة تقل الشرائع ، وقد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب .

لقد أرسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان ، ولكن إرادة القوة مثلت أمامى وكشفت لى حقيقة الخير والشر فى اعتقاد الشعوب

وهل سواكم ، أيها الحكماء ، من أنزل بارادته المتسلطة هذه الشرائع فى هذه الماخرة وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء .

لقد سار النهر يحملهن بانسيابه وسهم الماخرة يشق أمواجه ومن يبالى بالموجة تقاوم عبثاً فى إرغائها وإزبادها .

إن الخطر الذى يتهدد خيركم وشركم لا يكمن فى النهر ، أيها الحكماء ، بل الخطر كل الخطر فى إرادة القوة نفسها لأنها الارادة الحية الدائمة المبدعة .

ان ماسأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادى فى الخير والشر عند ما أتناول ببيانى ما تفعل العادات فى الأحياء .

لقد سايرت الكائن الحى على معابره وأشواطه لأتعرف إلى عاداته ، وعند ما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع لأستنطق عينيها فكلمتنى لحاظها .

فى كل مكان عثرت فيه على حى ، طرقت أذنى كلمات الطاعة فما من حى يتعالى عن الخضوع ، وعرفت أيضاً أن ليس من محكوم فى الحياة سوى من لا قبل له بإطاعة نفسه ... تلك هى عادة كل حى ..

وهذا ما سمعت أخيراً : إن تولى الحكم أصعب من الطاعة لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين .

إن فى أمر خطراً ومجازفة ، وكل مرة يصدر الحى فيها أمراً يقتحم خطرا .

وإذا ما تحكم الحى فى ذاته فانه يؤدى جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التى يسنها .

وتساءلت عن علة هذه الأمور وعن القوة التى ترغم الحى على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم . ولعلنى توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم ، فاصغوا إلى قولى أيها الحكماء

لقد تيقنت وجود إرادة القوة فى كل حى ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن فى إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوى على الضعيف ، فارادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف وتلك اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها .

وبما أن الأضعف يستسلم للأقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف فان الأقوى يعرض نفسه للخطر فى سبيل قوته فهو يجاذف بحياته مستهدفا للأخطار .

إن إرادة القوة كامنة حتى فى مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين لذلك يتجه الأضعف إلى السبل الملتوية قاصدا اجتياز الحصن والتربع فى قلب الأقوى مستولياً فيه على قوته

لقد أودعتنى الحياة سرها قائلة : لقد تحتم على أن أتفوق أبدا على ذاتى . وانكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة إبداع أو غريزة تحفز بى إلى الهدف الأسمى والأبعد منالا بعديد جهاته ، فى حين أن ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد . وإننى لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة .

والحق أنكم حيث تشهدون انحدارا وسقوط أوراق من الأدواح ، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة .

لقد وجب على أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف وأن أكون فى الوقت نفسه الحائل الذى يعترضنى فى انطلاقى إلى هدفى لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التى عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة إرادتى .

مهما كان الشىء الذى أبدعه ولى ومهما بلغ حبى له فان على أن

أنقلب له خصما ، وأتحول عن حبي وحناني ، ذلك ما قضته إرادتي على

وأنت ، أنت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي فعليك أن تقتفي أثر إرادتي ، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق

ما عثر على الحقيقة من قال بارادة الحياة ، لأن مثل هذه الارادة لا وجود لها ، وليس للعدم إرادة كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة

ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة ، ومع هذا فان ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة

ان هنالك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة ، لو لم تكن هنالك إرادة القوة .

هذا ما علمتني إياه الحياة يوماً ، وأنا بهذا التعليم أهتك أسرار قلبكم ، أيها الحكماء ، فأقول لكم : إنه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم ، لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاعتلا

وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وأوزانكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة ؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم . ولكم تجهلون أن في الأمور التي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها ، فمن أراد أن يكون مبدعا سواء أكان في الخير أو في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيما . وهكذا فان أعظم الشر يبدو جزءاً من أعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يعط إدراكه إلا للمبدعين

لقد حق علينا القول أيها الحكماء ، مهما كلفنا الجهر به فان الصمت أشد وطأة علينا ، لأن كل حقيقة نكتمها انما تتحول إلى سم زعاف فينا ، فلنحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكنها أن تحطم فان هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها

هكذا تكلم زارا . . .

العظماء

إن في بحراً هدأت أعماقه ، فمن يظن أنه يخفي مسوخا دأبها المزاح ؟ إن أغواري صامدة لا تتزعزع ، غير أنها تتماوج بالمعميات وتتجاوب فيها من الضحك نبرات وأصداء .

رأيت اليوم رجلا من العظماء الأجلاء الذين يكفرون من أجل الروح . فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه . غير أن هذا العظيم لم يبد ولم يعد . بل انتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء ، فلاح لي بحقائقه المروعة وبأثوابه الممزقة غصنا كله أشواك وليس فيه ورد .

ما تعلم هذا القناص الضحك ولا عرف الجمال ، فانه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد أن صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه ، فهو كالنمر يتحفز للوثوب ، وما أحب مثل هذه الأرواح المنقبضة على ما تضمر .

تقولون ، أيها الصحاب ، إنه لا جدال في الذوق وفي الالوان فكأنكم تجهلون أن الحياة باسرها نضال من أجل الأذواق والألوان .

ما الذوق إلا الموزون والميزان والوازن . . . فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل الموزونات والموازين والوازنين

ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه فانه في ملاله من هذه العظمة يستحق أن أتذوقه فأجد له طعما .

اذا لم يتحول العظيم عن نفسه فلا يمكنه أن يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه . لقد تفيأ الظل طويلا ، هذا المفكر من أجل الروح ، فشحب وجهه وكاد في انتظاره أن يموت جوعا ، وهذه عيناه تشعان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز ، انه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد .

ليت هذا الرجل يتمثل بالثور فيفوح من سعادته عبق الأرض لا احتقار الارض . ليته كالثور الابيض يعج أمام المحراث فيرتفع عجيجه تسبيحا للأرض وما عليها .

لقد اكفهر وجه هذا العظيم إذ تلاعبت على خديه أظلال يده فاختفت عيناه . وأعماله نفسها لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه . فان اليد ترسل ظلا قاتما على العامل إذا هو لم يتفوق على عمله

إنني أقدر احتمال هذا الرجل لنير الثور ولكنني أتمنى أن تشع نظرات الملاك في عينيه ، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينس ما فيه من إرادة الأبطال . لان ما أريد له هو أن يصير رجلا ساميا لا أن يبقى في مرتبة الرجل العظيم حيث يفقد الانسان إرادته فتتلاعب به أضعف النسمات .

لقد تغلب هذا العظيم على الجبابرة وتوصل إلى حل الرموز ولكن عليه الآن أن ينقذ هذه الجبابرة وهذه الرموز ليحولها إلى طفولة الألوهية .

إن معرفة هذا الرجل لم تتعلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما أن موجة شهواته لم تسكن في خضم الجمال . وما عليه أن يدفع

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



ميكيلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

وما صادفه من صعاب سبق ذكرها ، صادفه هنا فى تنفيذ مشروعاته الفنية الخاصة بحقوق أميرى المديتشى جيليانو ولورنسو ، اللتين كان قد أوصى بعملهما الكردينال جليودى مديتشى فى سنة ١٥١٩ ، ولم يبدأ فى تنفيذهما إلا سنة ١٥٢١ بعد تعديلات وأخذ ورد

على أنه عمل بيده فيها من سنة ١٥٢٧ إلى سنة ١٥٣٠ ، ووقف عند ما اضطر للفرار لهبوب العاصفة السياسية التى انتهت بانهزام المديتشى وخروجهم من فلورنسا . عندئذ عمل ميكيلانجلو تحت لواء الجمهورية حتى عودة المديتشى ثانياً

وبعد موت البابا بقليل سافر فى سبتمبر سنة ١٥٣٤ إلى روما دون أن يتم أعماله إلى النهاية فقد ترك اثنى عشر تمثالا دون إكمال إلى أن أتمها جورجيو فاسارى (١٥١١ - ١٥٧٤) الذى كان مصوراً ومهندساً معمارياً ومؤرخاً لعصره ، والذى بنى قصر أوفيسين بفلورنسا بردهته المعتبرة من أجمل ردهات قصور إيطاليا

ويحسن بنا أن نعلم بعض الشىء عن هاتين المقبرتين المشهورتين ، اللتين تعدان آية من آيات الاعجاز الفنى ، فبين حائطين تنحصر مسافة خصصت للمقبرتين ، ولكل منهما تمثالان رمزيان أحدهما لامرأة والآخر لرجل ، وفوقهما نافذة أشبه بقبلة وضع فيها تمثال للمتوفى جالس .

أما التماثيل الرمزية فهى عارية الجسم ، وأكبر من الحجم الطبيعى قليلا ، وتمثل الأوقات اليومية الأربعة وعلاقتها

بهذه الشهوات إلى سكون الشبع بل عليه أن يغرقها فى الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم من بلغوا الأوج بتفكيرهم

على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوق على راحته ، وما يصعب على البطل شىء كادراكه الجمال ، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف .

ان بين الافراط والتفريط قيد أنملة ، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وإن قصر وفيه الأهمية الكبرى . ولكن عضلات العظماء لا تلجأ الى السكون وارادتهم لا تنضب . وما من جمال الا فى تنازل القوة الى الرحمة وحلولها فى المنظور .

انى لا أطالب بالرحمة سواك ، أيها المقتدر ، فلتكن الرحمة آخر مرحلة تقطعها فى انتصارك على ذاتك . وما كنت لأفرض الخير عليك لولا انى أراك قادرا على ارتكاب كل الشرور . ولكم أضحكنى أولئك الصعاليك يعدون أنفسهم رحماء وقد شلت يدهم ولا حول لهم ولا طول

عليك أن تتمثل فى فضيلتك بفضيلة الاعمدة التى تزداد بهاء ودقة وصلابة فى لبابها كلما ازداد ارتفاعها

أجل أيها الرجل العظيم إنك ستبلغ الجمال يوما فترفع المرآة إلى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة فى غرورك

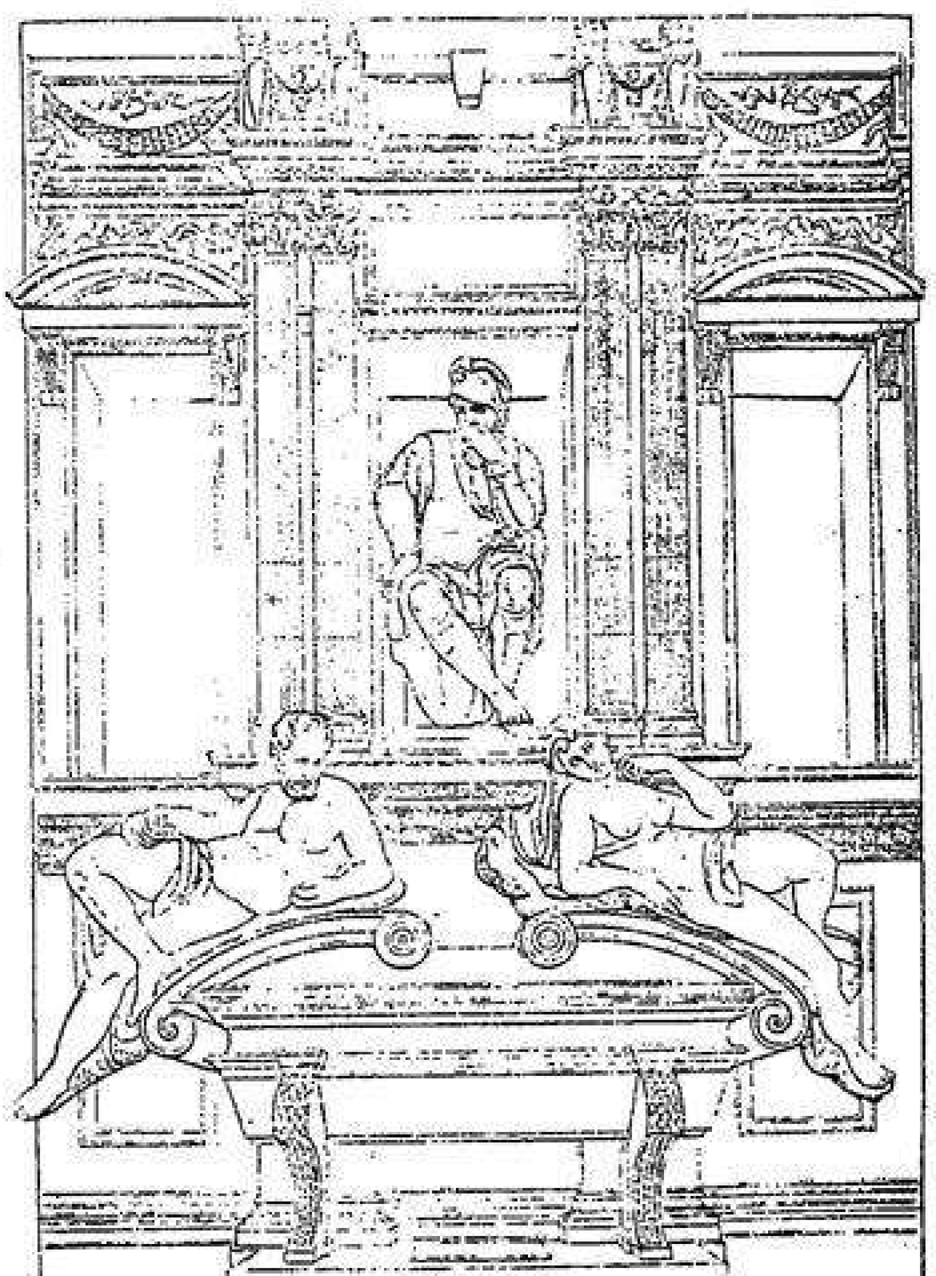
لا يقترب البطل فى أحلامه إلى مرتبة البطل الكامل مالم يغفل الروح ويتحول عنها .

هكذا تكلم زارا . . .

بالنفس وهى « الليل ، النهار » و « الفجر ، المساء » معبرة عن الأسى والحزن لوفاة الاميرين .

وقد عبر ميكيلانجو عن الليل بامرأة نائمة وعند قدميها بوم . وأما النهار فقد مثله برجل هرقلى التكوين ، ولكنه ترك الرأس والذراع غير كاملين ، وكلاهما فى غاية القوة الانشائية وحسن الاخراج ، ولكن الطريقة الوضعية لهذين التمثالين تكاد تكون مستحيلة بالنظر إلى الكيفية التى أجلسهما بمقتضاها ، وهذا ما قررته عند ما تناولنا مميزاته الفنية بالبحث

ونأتى هنا بصورة لجانب آخر من هذه المقبرة (ش ١) فترى فيها لورنسو جالساً ، وعند قدميه تمثالا الفجر والمساء (ش ٢ ، ش ٣) . أنظر إلى رأس كل منهما وتأمل القوة فى الاخراج والعظمة فى الانشاء ؛ فالوضع العام خال من الارغام



(ش ١)

والطريقة الوضعية أهدأ كثيرا من تماثيله لليل والنهار ، وقد عبر عن الحزن تعبيرا قويا ، هذا والتكوين الجسمانى وسير الخطوط الانشائية مما يثير الدهشة والاستغراب لهذه القوة الخارقة فى تقدير الجمال الكامل وحسن إخراجه

أنظر إلى جمال اليد اليسرى للمرأة ، وإلى اليد اليمنى للرجل وتأمل نعومة جسم المرأة وقوة عضلات الرجل ، ترى أن



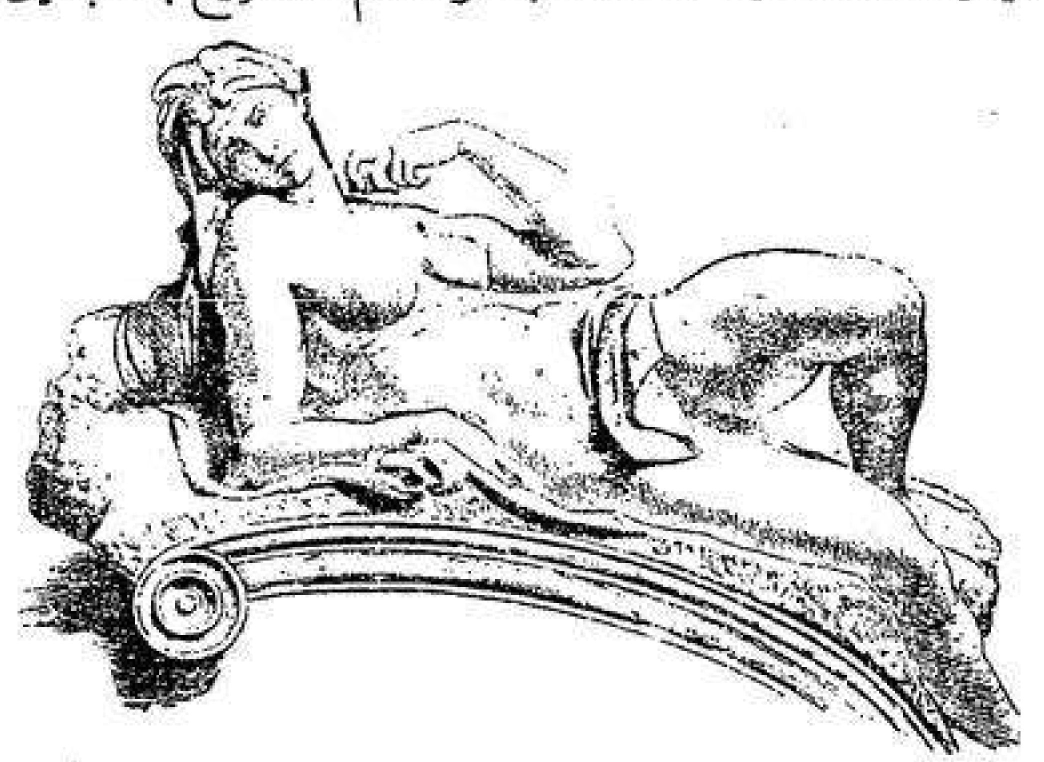
(ش ٢)

ميكيلانجلو كان موفقاً كل التوفيق فى هذين التمثالين

أراد أن يمثل لك بطريقة إخراجه ألم الأحلام الحزينة فى الليل وما ترسمه على الملامح عند الفجر ، فأخرج وجه المرأة على هذه الصفة ، كما أراد أن يمثل لك كيف أن الحزن نهاراً يعود على الجسم العامل والعقل المفكر بملامح أقرب إلى إنهاك القوى والتعجيل بحلول الشيخوخة ، فكان إماماً يحتذى وقائداً يتبع وفناناً يذكر على مر القرون

وتمثالاه لجيليانو وفلورنسو أقرب إلى الاخراج الاغريقى وهما لا يمثلان صاحبيهما وإنما هما رمزيان للتعبير عنهما فالأول مثل قائداً حربياً ارتسمت على وجهه ملامح التفكير وقوة الارادة وصرامة الأوامر . وأما الثانى (لورنسو) (ش ١) فتراه جالساً وقد اكتسى جبينه بغطاء رأسه فأحدث ظلا على العينين أكسب صاحبهما شيئاً من الخفاء وعمق التفكير . أنظر إلى اليد اليسرى وقد لامست شفتيه وإلى السبابة وقد جاورت الأنف ، ثم تأمل المجموع الكلى ، تر أن صاحب هذا التمثال بحالته هذه وبطريقة جلسته وعمقه فى تفكيره ، لا بد وأن يكون من رجال السلطة العامة . وهذا ما قصده ميكيلانجلو تماماً فقد سجل بذلك للأخوين أميز وأبرز صفاتهما وهى الحكم .

والدارس للجموع الانشائى لهاتين المقبرتين يسجل لميكيلانجلو المعرفة الصادقة بأصول علم التشريح بالنسبة إلى



(ش ٣)

التماثيل ، والاحاطة الكاملة بعلم النفس بالنسبة إلى مظهرها ، فضلا عن القدرة فى فن المعمار التى تجلت فى وضعه التصميم الكلى وما انطبع عليه من الانسجام

وله على الحائط الثالث للمقبرة مجموعة تمثل المادونا مع يسوع الطفل ، وهى جالسة والطفل متجه إلى ثديها للرضاعة ، وهى لاتقل جمالا عن قطعه الأخرى ، لا سيما وان المادونا على جانب كبير من الجمال الرفيع مع شيء كثير من الحزن

وعلى ذلك لا مناص للمؤرخ الفنى من اعتبار هاتين المقبرتين مجموعتين أعظم انتاج مجسم أخرجه ميكيلانجلو وأكمل عمل فى أفرغ فيه غايته وأدى به رسالته ، كما أن ما شملتاه من تماثيل بجانب تمثاله للنبى موسى (راجع المقال السابق) أهم وأبرز انتاج فنى فى مدرسة النحت الحديث

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد بدأت منذ رحيله نهائياً إلى روما فى سبتمبر سنة ١٥٣٤ ، وإقامته فيها حتى وفاته بعد أن بلغ التاسعة والثمانين فى ١٨ فبراير سنة ١٥٦٤

وقد ارتقى رئيساً عاما للمعماريين والنحاتين والمصورين فى القصر الابوستولى ، وكلفه البابا بتصوير السقف السكستينى (نسبة إلى البابا سكستس الرابع) واشتغل منهمكا فيه من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وصور « يوم القيامة » كما صور بين سنة ١٥٤٢ وبين سنة ١٥٥٠ الصور اللازمة لمجموعة باولينا .

أما من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٤٥ فقد أكمل البناء التذكارى ليوليوس . وهو بناء شامل لطبقتين (دورين) لكل منهما ثلاث قبلات ، فى الطبقة الأرضية تمثال موسى ، وعلى اليمين واليسار وضع تمثالان جديدان ، الأول يمثل « ليا » امرأة يعوب الأولى وبيدها المرآة ، والثانى لامرأته الثانية « راشيل » وهى تصلى ، وهما مليئتان بالحياة والحركة .

أما فى الطبقة العليا ، فله قطع مثلت البابا والمادونا والكاهن والنبى ، وهى ليست فى جودة قطعه السابقة ، ولذلك يخيل الينا أنها من نحت تلاميذه .

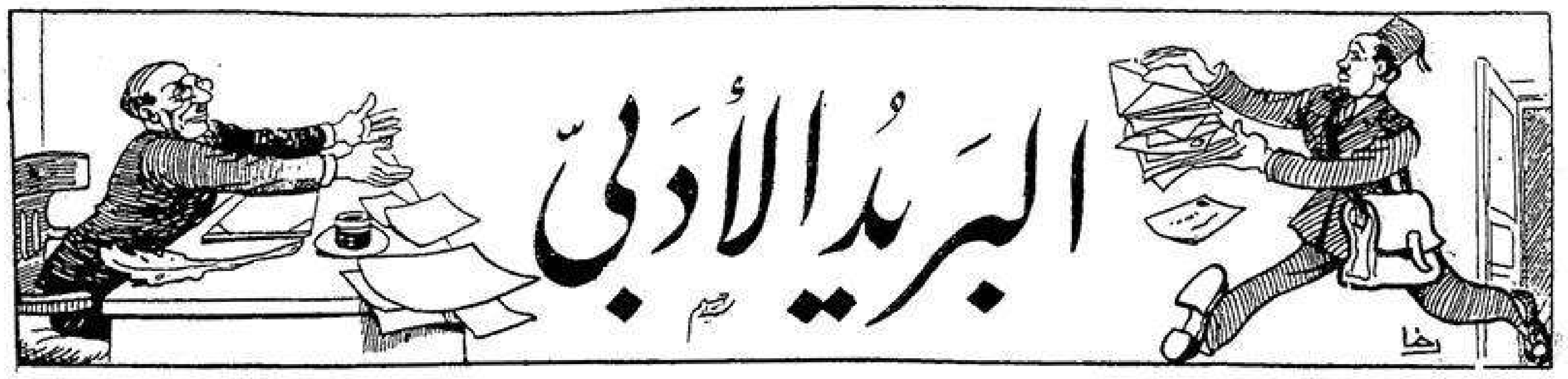
ونحت بعض التماثيل وتركها دون إتمام ، منها مجموعته لبيتا pieta ومنها المجموعة الصغرى محفوظة بقصر روندانينى بروما ، ومجموعته الكبرى عملها خصيصاً لمقبرته وهى تشمل أربعة تماثيل موجودة الآن فى كاتدرائية فلورنسا بالردهة الرئيسية .

واشتغل فى هذه المرحلة بالشعر أيضاً وله ملحات معروفة، خصوصاً تلك التى كتبها غزلا فى معشوقته فيتوريا كولونا بين سنة ١٥٣٤ و ١٥٤٧ وكان لها تأثير عظيم فى فنه وفى مجرى حياته

ومنذ سنة ١٥٤٦ أسند اليه الاشراف الفعلى على بناء قبة كنيسة بطرس واشتغل بهندسة المعمار السبعة عشرة سنة الأخيرة من عمره ، ودفن فى كروسه بفلورنسا .

أما ميكيلانجلو المصور فسيكون موضوع بحثنا فى العدد القادم .

أحمد موسى



وفاة جيمس باري عميد الكوميديا الانكليزية

نعت أنباء لندن الأخيرة كاتباً من أعظم كتاب انكلترا المعاصرين هو السير جيمس باري J. Barrie القصصي والكاتب المسرحي الكبير؛ توفي عقب إصابته بالتهاب رئوي صاعق. وكان مولده سنة ١٨٦٠ في قرية من أعمال اسكتلنده وتلقى تربيته في جامعة أدنبورج، وشغف بالأدب منذ حداثته وفي سنة ١٨٨٣ بدأ حياته في الصحافة، واشتغل بالتحرير في جريدة «نوتنهام جورنال»، ولفت الأنظار إليه بعدة مقالات أدبية رائعة؛ وفي سنة ١٨٨٥ انتقل إلى لندن، وظهر كتابه الأول بعد ذلك بعامين بعنوان: «الموت أفضل» Better Dead، وهو مزيج من الخيال الساحر والتهكم اللاذع ثم ظهر كتابه Aul Licht Idylls، وهو مجموعة صور ريفية فزاد في شهرته؛ وبعد قليل ظهرت روايته الصحفية الشهيرة «حينما يكون الرجل أعزب» When a man is Single ثم مجموعة صور جديدة عن الحياة في أدنبورج، وظهرت في سنة ١٨٨٩ أقوى وأعظم رواياته وهي «أرملة في ثياب خشنة» A widow in Thrums، ثم رواية ظريفة عن التدخين عنوانها My Lady Nicotine، ثم «الوزير الصغير» Little Minister

وفي ذلك الحين بدأ باري يكتب للمسرح، وافتتح مجهوده بمسرحية عنوانها Walker London فنالت نجاحاً عظيما وتلاها بكوميديا عنوانها «قصة غرام الأستاذ» Professor's Lov-Story في سنة ١٨٩٥؛ وأصدر في هذا الوقت أيضاً مذكراته في حياته الأولى مع والدته بعنوان Margaret Ogilvy ثم استأنفها في روايتين أخريين هما Tommy and Grisel و Sentimental Tommyn وتمتاز هذه السلسلة بأسلوبها الفكاهي اللاذع الذي برع فيه باري براعة عظيمة

وفي سنة ١٩٠٢، أخرج باري مسرحيته الغريبة: «العصفور الصغير الأبيض»، وهي أول حلقة من سلسلة القطع الشهيرة التي اتخذ لها بطلا مدهشاً هو «بيتر بان»

واشتهر أيضاً بقطعة أخرى عنوانها: «لعبة الاختفاء مع الملائكة» Hide and Seak with the Angels، وفيها يشرح طريقته في العمل وفي الحياة كأنها مداعبة مع الملائكة

ويرى النقدة أن سير باري بلغ أروع مواهبه في الكوميديا، وأنه يعرضها بفن لا يجارى ويتفوق فيها على المأساة (الدرامة)، وفي أثناء الحرب أخرج باري عدة من المسرحيات المؤسية والكوميدية، بيد أنها لم تكن من النوع الممتاز وأشهر هذه القطع: «قبلة لسندريلا» Akiss forCindrella ويبدو باري في هذه القطع متأثراً بطابع هانس اندرسون

وحصل باري سنة ١٩١٣ على وسام البارونية، ثم وسام الاستحقاق سنة ١٩٢٢. وانتخب منذ سنة ١٨٣٠ مستشاراً لجامعة ادنبورج.

أعياد جامعة لوزان:

قرأنا في البريد السويسري الأخير شيئاً عن جامعة لوزان التي احتفلت أخيراً بعيدها بمناسبة مرور أربعمائة عام على تأسيسها ويذكر القراء أن الجامعة المصرية قد اشتركت في هذا الاحتفال على يد مديرها الأستاذ الكبير لطفي السيد باشا وقد نشأت جامعة لوزان سنة ١٥٣٧ أكاديمية متواضعة

أنشأها أهل برن فى مقاطعة فات (فود) بعد أن افتتحوها لتكون معهداً للتبشير للدين البروتستانتى الذى غلب فى سويسرا يومئذ، وقطعت الأكاديمية الجديدة عهداً من الاضطراب خلال الجدل والخصومات الدينية، ولكنها لقيت عضداً كبيراً فى معاونة البروتستانتيين الفرنسيين؛ وفى سنة ١٧٠٠ زادت الأكاديمية على قسم اللاهوت قسمين جديدين للتاريخ والقانون، ولما استقلت مقاطعة فات بشئونها الادارية عنيت بتنظيم الأكاديمية، وصدر سنة ١٨٣٧ قانون بانشاء ثلاث كليات بها. وفى سنة ١٨٦٩ وضع العلامة لوى ريشونيه مشروعاً لتنظيمها، وأخيراً فى سنة ١٨٩٠ حولت إلى جامعة كبيرة، وأنشئت لها مبان فخمة.

وقد كان الاحتفال بعيد جامعة لوزان مظاهرة علمية دولية عظيمة؛ فقد اشترك فيه ممثلو الجامعات والهيئات العلمية فى سائر أنحاء الأرض؛ وافتتح الاحتفال فى الكتدرائية الكبيرة، ثم أقيم مهرجان علمى بالجامعة لمنح العالميات الفخرية لطائفة من العظماء؛ ثم نظمت بعد ذلك نزهة لقصر شيلون الشهير الذى تغنى به الشاعر بيرون

كتاب جديد لأميل لودفيج

يعنى الكاتب المؤرخ الألمانى الكبير أميل لودفيج بعد أن أخرج كتابه الضخم عن نهر النيل بقسميه حسبما ذكرنا ذلك فى الرسالة، بوضع كتاب جديد عن كليوباترا ملكة مصر، وينتظر أن يظهر هذا المؤلف الجديد بعد بضعة أشهر فقط؛ وفى ترجمة كليوباترا يستطيع أميل لودفيج أن يعرض كل مواهبه وبراعته كمترجم لأبطال العالم؛ وقد ظهرت هذه البراعة من قبل فى جميع التراجم التى أخرجها المؤرخ عن «المسيح» وعن «نابوليون» وعن «بسمارك» وعن «ولهلم الثانى» وغيرها، بيد أنه يجد فى حياة كليوباترا ميداناً أكثر سحراً وخصوبة؛ فحياة هذه الملكة المصرية العظيمة لم تكن سوى مأساة مؤثرة؛ وأميل لودفيج فى الواقع كاتب مسرحى قبل كل شىء يجيد عرض المآسى؛ وأخص ما فى تراجمه هو هذا العرض الذى يصوغها فى صورة الأشخاص الحية، تراها أمامك تحت قلمه بجميع مناظرها وجميع حسناتها وعيوبها، وعنصر المأساة هو الذى يجذب أميل لودفيج ويذكى خياله وقلمه، ولا يتوفر هذا العنصر قدر توفره فى حياة كليوباترا فهى ملكة عظيمة وامرأة ساحرة، تستعمل سحرها كامرأة فى الذود عن مركزها كملكة، فاذا خانها الحظ، ولم يعد سحرها يحدث أثره، وحينما تشعر أن كل شىء قد أفلت من يدها ولم يبق غير العبودية، فانها تؤثر أن تغادر هذه الحياة بمحض إرادتها؛ وفى حياة كليوباترا نلتقى بشخصيات عظيمة كشخصية أنتونى، ويوليوس قيصر، ثم أوغسطوس، وفى هذا المزيج من العبقريات المدهشة يستطيع أميل لودفيج أن يطلق العنان لقلمه، وسوف تعنى شركة «الان وانوين» باخراج هذا الكتاب

جامعة انكليزية فى قبرص

منذ بضعة أشهر قام اللورد جورج لويد المندوب السامى لانكلترا بمصر سابقاً برحلة فى بلاد الشرق الأدنى، وقيل انه مكلف بمهمة سياسية وثقافية خاصة، والآن يتضح لناطرف من هذه المهمة؛ فقد راع السياسة البريطانية انتشار الثقافات الأجنبية الأخرى؛ ولاسيما الثقافة الايطالية فى مصر وفلسطين وقبرص ومالطة، فرأت أن تتقى هذه المنافسة الخطرة بمثلها؛ وعرض لورد لويد أخيراً نتائج بحثه على لجنة الشئون الخارجية بمجلس العموم البريطانى؛ وأخص ما يقترحه اللورد علاجاً لهذا المشكل أن تنشأ جامعة انكليزية فى قبرص تكون مهداً لاذاعة الثقافة البريطانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط، ويقول لورد لويد بأن الثقافة البريطانية ليست أقل فى نوعها ونفوذها من الثقافة الايطالية، وأن شعوب هذه الأنحاء تفكر ولا ريب أن تتغذى بالثقافة البريطانية. ثم ان الدعاية الايطالية التى تشتد وطأتها الآن فى شرق البحر الأبيض المتوسط لا يمكن مقاومتها إلا عن هذا الطريق الثقافى القوى

وإذا كانت إيطاليا وهي ليست ذات مصالح حيوية في هذا القسم من البحر الأبيض تعنى هذه العناية بنشر ثقافتها فأولى بريطانيا العظمى ذات المصالح العظيمة في هذه البلاد أن تدعم هذه المصالح بنشر ثقافتها

مسارح الهواء الطلق

أعدت ألمانيا هذا العام ثمانية وأربعين مسرحاً مكشوفاً يمثل فيها في الهواء الطلق ، وتوجد هذه المسارح اليوم في معظم المدن الكبرى ومراكز الاصطياف والاستشفاء ؛ ويجري فيها التمثيل في شهور الصيف من يولية حتى سبتمبر وقد اختير لها برنامج معظمه من القطع الكلاسيكية الخالدة مثل « حلم ليلة صيف » و « روميو وجوليت » لشكسبير ومسرحيات جيته وشيللر شاعري ألمانيا العظيمين ، وكذلك أنتخبت عدة قطع محدثة من مسرحيات ابسن وهابتمان ، وبيرجنت ، وفلوريان جير وغيرهم ، وبعض قطع كوميدية شهيرة . وسوف تمثل أيضاً في هذه المسارح المكشوفة أوبرات موسيقية لأعظم أقطاب الموسيقى مثل جلوك ، وهاندل وريخارد شتراوس ، وأوجين ألبرت وغيرهم

وفكرة المسارح المكشوفة مستمدة من اليونان القديمة حيث كانت أثينة واسبارطة وكورونته تغص بهذه المسارح الرياضية الفنية ؛ وكانت كالمدارس الشعبية العملية تتخذ أداة لتثقيف الشعب وتهذيب مشاعره

الاحتفال بذكرى وفاة ابن سينا

من أنباء الآستانة أن جمعية التاريخ التركية احتفلت في ٢١ من هذا الشهر بمرور ٩٠٠ عام على وفاة الطبيب الفيلسوف التركي الكبير ابن سينا احتفالا يليق به . وقد بدأ الاحتفال في الساعة الثانية في معهد البيولوجيا بالجامعة . وألقى كثير من العلماء الأتراك والأجانب محاضرات شرحوا فيها الخدمات التي أداها ابن سينا للعلم . ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء المسيو لوفان رئيس شرف الجمعية الدولية لتاريخ الطب والدكتور تريكور رداير أستاذ تاريخ الطب بالجامعة والرئيس العامل لنفس الجمعية والدكتور جوبولو . وقد نشرت بهذه المناسبة كتاباً عن حياة الفيلسوف الشهير وأعماله وعرضت في الوقت نفسه كتب ابن سينا المخطوطة والمطبوعة في المعهد البيولوجي وقد أعدت جمعية التاريخ التركية في المطبعة الأميرية بالألوان الكتاب الأصلي للفيلسوف الشهير وهو الموجود في متحف المؤلفات التركية والاسلامية

كذلك احتفل في جميع أوزبكستان بالذكرى التسعمائة لوفاة (ابن سينا) وقد جمعت بهذه المناسبة النماذج النادرة لمؤلفات العالم الكبير باللغات العبرية والعربية واللاتينية في مكتبة طشقند وقد نشر المستشرقون في أوزبكستان نشرة تضمنت مقالات عدة عن ابن سينا

منح جوائز التفوق العلمي

اتصل بنا أن معالي وزير المعارف يدرس الآن مشروعاً لإقامة حفلات عامة في القاهرة تمنح فيها جوائز للتفوق العلمي وهذه رغبة من رغبات الرسالة نادت بها في مستهل هذا العهد الجديد.

ونقول بهذه المناسبة إن مجلس إدارة الجامعة قرر إقامة حفلة سنوية تمنح فيها الدرجات الجامعية باحتفال كبير



بقعة من حبر

للقصصي الفرنسي رينه بازين

UNE TACHE D'EUCRE

Reué Bazui

للأديب أحمد المحمود

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأول من سني حياتي ، ومجرد تعداد هذه الأرقام يكفي — كما ترى — لاظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها .

مات أهلي ولم أعد الطفولة الأولى ، وإني لأستحضر صورهم في شيء من الجهد والمشقة ، وتكاد معالم البيت الذي شهد حبوي الأول تنمحي من ذاكرتي لولا أني نشأت غير بعيد عنه أرنو اليه ويرنو إلي ، ولكن الدار بيعت وا أسفاه ! وغاضت حياتها أبد الدهر ، أجل بيع البيت لجري عليه حكم القدر القاسي وفي هذا المكان اكتحلت عيناي بالنور ، وفي مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمري وقد اعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وأنها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها في النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً .

وما كدت أنهي دراستي الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالي إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفي ثلاث سنوات نلت الاجازة التي مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهي في يدي ، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت — بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالي — محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودي في المكتب مع زملاء آخرين وظهر لي بذلك انني حزت ثقة الأرملة واليتيم .

نلت اجازة الأدب — في يسر ولباقة — بينما كنت أتابع دراستي الحقوقية ، وأنا الآن أوشك أن أغدو « دوكتورا » في الحقوق ، ولقد كانت امتحاناتي حسنة في الجملة ، ولكنها ليست في الدرجة التي كنت أرجوها إذ قال لي أستاذي إن الذوق الأدبي عمل فيها عمله الشديد « وطبيعة الحقوق — يا بني — لا تمت — على عادة العلوم — إلى القلب والعاطفة بسبب من الاسباب » . أصحيح أن قلبي موزع بين الأدب والحقوق ؟ ذلك ما لا أعتقده ، ولكنني لن أعترف بهذا إلى أستاذي الذي لم ينس بعد أنني نلت أجازة في الأدب . إنه يبني علي بعض الآمال ومن الطبيعي أن أبني عليه — بدوري أنا — بعض الأماني في الفحوص المقبلة .

وماضي حياتي تختصره ورقتان نلتهما وثالثة تتراءى لي عن بعيد ، وأوشك أن أنالها ، ثم خال ذو ثروة كبرى . والى تاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨٤ لم يكن ثمت حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور ، وهذا حادث خطير جرى لي بعد ظهر هذا اليوم فأثر في نفسي أثره العميق وهاج من خواطري كلما أمعنت التفكير فيه والتحليل له والوقوف عنده .

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار « المكتبة الأهلية » للعمل في صالة المخطوطات الخاصة التي تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها ، وكنت في كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودي في مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم . وأتخطى برهبة سدة الحارس الذي اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عند ما يمرون به إلى مقاعدهم . ولم تكن بيني وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود علي بابتسامة ، ولكنه على كل حال كان يستقبلني بانحناءة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يراني كل يوم فلا يطلب مني البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أنني أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما علي إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام .

ها أنذا في هذه الصالة الفخمة أسرح البصر في اتساعها وجدرها المزينة التي تشبه في أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة تسمت

فى النفس شعور الاجلال والتعظيم . وعلق بصرى بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية . وينتثر إلى جانبى هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء ، ومن يتأملهم مقوسى الظهور مطرقى الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم فى نفسه تأثير الفكرة فى العقل البشرى ومبلغ اجتياحها فى رؤوس هؤلاء التى قلت شعورها ، ومع ذلك فان هذا الجمع من القرعان كان لا يعدم بعض من برقت شعورهم

وغالبا ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عند ما أمر - عن القراءة فيشخصون إلى بعين « تائهة » بلهاء لا تميزنى جليا لاغراقها فى القراءة والتفهم ، ولكن هذه الابصار كانت تنحسر عنى عندما تلمح تقطيب وجهى فتتصهب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهى أشد ما تكون نشاطا وشوقا وندما على أن أضاعت الوقت فى تفحص هذا الآتى الغريب . ولكننى كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه . هذا يبتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها ، وذاك عاكف على دراسة عصر لويس الثانى عشر ، وآخر يهمس فى أذن رفيقه : أنا أدرس أحوال المرأة المدنية فى عصر طيباريوس ، ويسرع آخر إلى شده الجمع بانه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس . وشعرت بان جميع من فى هذا المكان يبتدرنى بالسؤال : وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا ؟ ألا لا تعكر صفاء هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا ؟ ! وا أسفاه ! . . . يا سادة . . . وهل أنا فى حاجة إلى أن أقول لكم إن خالى ما فتىء يستحثنى ويلحف على فى انهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرنى إلى العودة إلى الريف ويبدى سأمه من بطء الوضع والتأليف ، وها هو ذا صراخه فى كتبه إلى : « أقلل من النظريات يا بنى ؟ . . . أسرع الى العمل ودع عالم الخيالات والاحلام وما الذى أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه ؟ . . » والواقع أن موضوع « اطروحتى الرومانية » انتقى خصيصا لتمديد إقامتى فى باريس . «لاتين جونيوس» هذا موضوع اطروحتى — أيها السادة القراء — وانه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسر التوضيح ، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لى تعبا كثيرا ونصباً جما ، وباليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات

ومن الصدق والواجب أن أقول إننى كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهى وان خالى يجهل من أمرى كل شىء إلا أننى مدمن للكتب والموسوعات ومغرق فى استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وان خالى ليعجب كثيراً بابن أخته الناشىء ، هذا الراهب الناسك « البندكتى » الذى لا يفارق دور العلم وأروقة « المكتبة الأهلية» فى باريس ، بابل الحديثة - كما يسميها - مفنياً لياليه وأيامه مع « غايوس » مستصحباً « لاتنيه » غير عابىء بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة . وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه بى فأرسل له دائما بطاقات الانتساب للمكاتب ودور العلم موقعة من قيميها ومحافظيها وهو دائما يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق . ولقد وصلت هذا الصباح ناشطا أكثر منى فى بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقنى للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسى فسبب لى بلية ما كان أشغلنى عنها وأغنانى ! . .

تنتصب إلى جانبى سدة قيم المكتبة اريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتنى خطاى إلى الأريكة اليمنى وياليتنى لم أقصدها ، اذن لكنت فى نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة . أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير اسم الكتاب والمؤلف الذى أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها ، ولكن ما أدرى والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وانى لأسمع صوتها . . . لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة . . . على . . . على كتاب أثرى . . . أمام أحد الأعلام الشيوخ ! . . وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الانسان الأبيض الهزيل فى ظلام مقعده صارخا :

- يا للغباوة ! . . لقد لوثت الكتاب الأثرى !

وملت إلى المقعد أتفحص فعلتى التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب ، وها هى ذى تتفرطح فتتشعب إلى ما يشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة ، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم فى السماء . وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة . وتطلعت فاذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظر إلى بعينين متفحصتين فجمدت عروقى وسمرت فى مكانى لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لا ترد على ما فات . وأما قارىء الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال

الملاحظة فاهتز اهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحا . واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد حيث وضع لى غلام المكتبة الكتب التى طلبتها . وجلست أحمل نفسى على الاعتقاد بأننى لو لم أفه بشىء ولو أننى أتوارى عن الأنظار أو أن أخبىء رأسى بين يدى كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الامر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد . وفوقت البصر قليلا أسترق تتمة المشهد فاذانى أبصر هذا الانسان الابيض الصغير الذى كان واقفا الى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدى وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطورا إلى متجها نصف اتجاه ، وحزرت دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدنى بالكلمات الخشنة التى كان يذروها ، وقد بدا لى بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق على من كلمات هذا الشيخ الذرب ، فاحمر وجهى خجلا وأحسست بالخجل يسير فى كل جسمى

وهاهم أولاء يتصفحون دفترا وأظنه البيان الذى يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان منى وتحديد الجزاء والغرامة ! .. أواه ! .. يا خال تأهب لتحملها !

إلى هنا استرسلت فى أفكارى المحزنة ومارجعت إلى نفسى إلا وشعرت بان يداً تربت على كتفى دون أن أحس بدنو صاحبها، قال:

— إن الحافظ يطلبك إليه

فنهضت أثار الغلام وما إن حاذيت القارىء الرهيب الذى كان قد استقر به مكانه حتى لمست بعضى فى الوصول إلى سدة القيم الذى بدرنى :

— أو أنت الذى لوثت هذا الكتاب ؟ . .

— نعم ياسيدى

— . . . إنك لم تتعمد فعلتك هذه ؟

— طبعا لا ، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدى

— أنت على حق فى ندمك وعلى صواب ، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الاثرية الموجودة ، والبقعة أيضا من اغرب البقع ولا أعتقد أنى رأيت بقعة على هذا الشكل .

وأحسست باننى ساقول له إن الانسان يلوث كما يشاء ، لولا أننى أمسكت نفسى ، فقال لى :

— اكتب اسمك وصنعتك ومكان إقامتك ؟

فكتبت ما يلى :

« فابيان جان جاك مويارد محامى ، ٩١ ، شارع رن

— هذا كل شىء ؟ . . .

— نعم هذا كل شىء مؤقتا ولكننى أعلمك بان « مسيو شارنو » مغيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التى اقترفتها .

— مسيو شارنو ! ؟ . .

— نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذى كان يقرأ الكتاب الاثرى .

وتساءلت فى نفسى عن هذا القارىء الخطير . . . يا الهى ! . . أيكون المسيو شارنو هذا الذى تكلم لى عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق فى اطروحتى ؟ انهما زميلان إذن أحدهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثانى عضو معهد دراسة النقوش والفنون الجميلة .

شارنو ! . . شارنو ! . . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن فى أذنى ولاسيما فى المرة الاخيرة عند ما قال لى استاذى : انه (أى شارنو) صديق الحميم من معهد الفنون والآثار . وأحسست بأن خطراً يتهددنى فى شهادتى وامتحاناتى ونزلت إلى أعماق نفسى اتحسس غوامضها فاذا بى فى مأزق حرج ما أهتدى إلى الخروج منه ، وان الخوف يتسرب إلى من جهتين اثنتين :

أولا - لا أعلم ماذا ينتظرنى من الجزاء والعقوبة للكلمة التى فاه بها القيم عند ما استكتبنى اسمى وكنيتى . وثانياً - أخشى ان يفسد على هذا العالم « شارنو » عطف استاذى فلامارون لانتهاكى حرمة الكتاب الذى كان يقرأه ، هذا إذا كان نزقا غضوبا كما ظهر لى عند وقوع الحادث المشئوم .

وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو ؟ وأى الأعذار أقدمها له ؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار ؟ أم ان هذا من حق الكتاب الذى احتمل اعتدائى ؟ ان المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شىء من الحبر أو اللطوخ ، فلماذا اذن يأخذنى بهذه الحدة وهذا الغضب ؟ . . ولكننى سأقول له :

— سيدى أنا آسف جداً لأنى عكرت عليك الصفو فى أبحاثك العلمية . ان كلة أبحاثك العلمية ستتملق ولاريب أثرته واحساسه وستكون مخدراً قويا لأعصابه المتوترة . . .

واستجمعت نفسى للنهوض واذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب مازال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص فى الشفاه إلى سهوم فى الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب فى امسا كها الى خاصرته . وحدجنى بنظرة قاسية . . . وتابع خطاه .

حسنا يا مسيو شارنو ! . . إن رجلا غاضبا فى حالتك التى أشهد لا يمكنه استساغة المعاذير ولكننى سأعتذر لك فيما لو تقابلنا اذا كان للايام أن تضعنا وجها لوجه . . .

(طرطوس) احمد المحمود

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الخامسة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الخامسة